كتب دائرة المعارف الإسلامية
(٧)

التفسير

نشأته - تدرجه - تطوره

بقلم
أمين الخولي

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية
ابراهيم خورشيد . د. عبد الحميد يونس . حسن عثمان



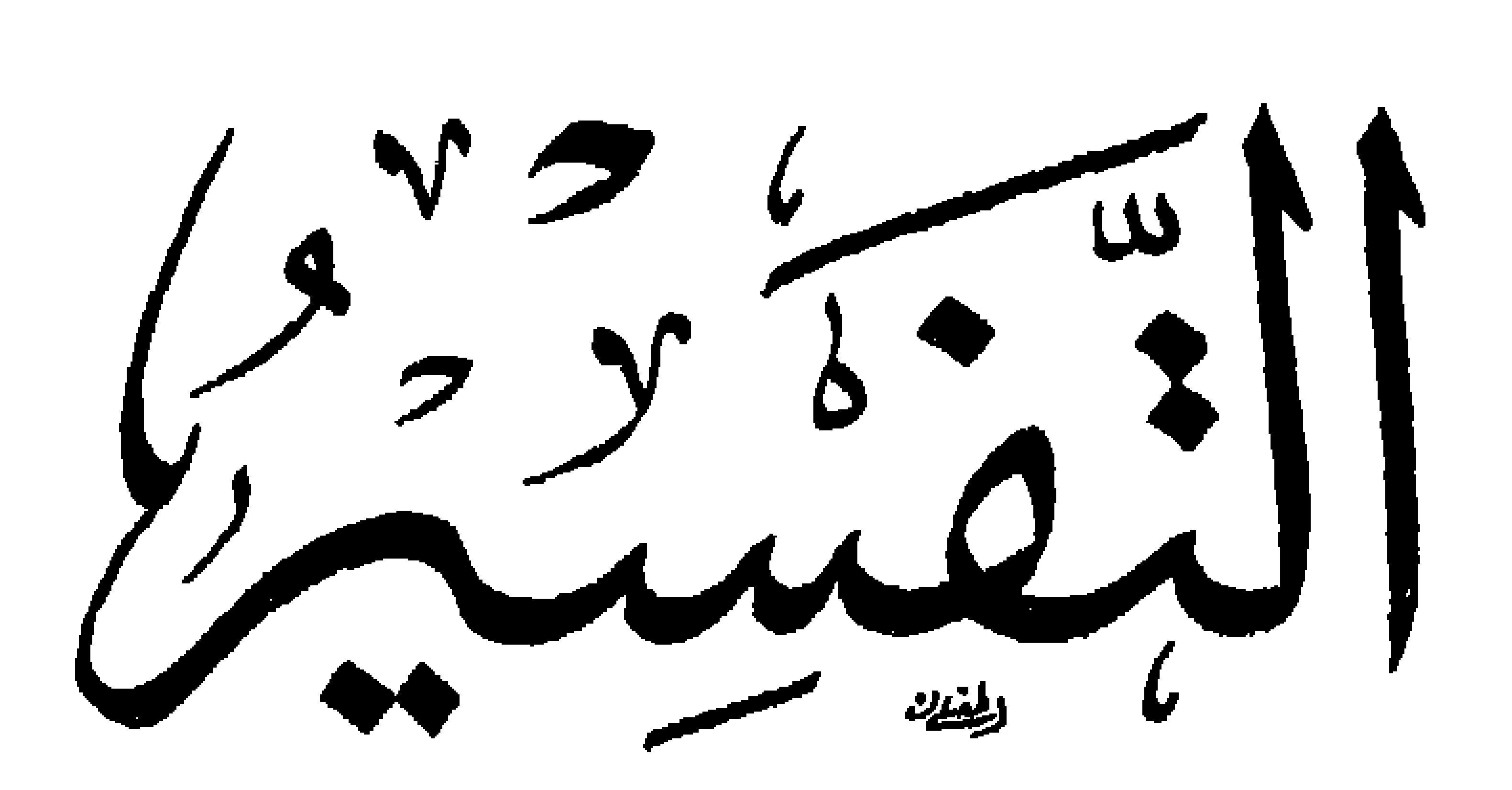
دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان

مكتبة المدرسة
بيروت - لبنان


التّفسِير

كتب دائرة المعارف الإسلامية

(٧)



التفسير

نشأته - تدرجه - تطوره

أمين الخولي

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

إبراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وهذا هو الكتاب السابع من « كتب دائرة المعارف الإسلامية » ويتناول موضوعاً من أهم الموضوعات الإسلامية وهو « تفسير القرآن الكريم » ، وقد كتبه المستشرق كارّاده ڤو وعلّق عليه تعليقاً مستفيضاً الأستاذ أمين الخولي رحمه الله .

ولد البارون كارّاده ڤو سنة ١٨٦٧ ، ودرس العربية ودرّسها في المعهد الكاثوليكي بباريس ، وصرف همه إلى الرياضيات والموسيقى والفلسفة والتاريخ ، وعرف بها .

ومن أهم آثاره كتابه عن مفكري الإسلام في خمسة

أجزاء وقد اشتهر به في العالم العربي ، والرياضيات وعلم الفلسفة (باريس سنة ١٨٩١) ومحاضرات في العربية (سنة ١٨٨١) ، ولخص صفة الزامر لأپولونيوس (المجلة الأسيوية) وشرح الكرويات لتيود وسيوس بتصحيح يحيى بن محمد المغربي ، ونشر ملخصاً في الساعات المائية لأرشميدس ، والصلة الموسيقية لشرف الدين (١٨٩١) ، والمجسطي لأبي الوفاء البوزجاني (المجلة الأسيوية ١٨٩٢) ، وله أيضاً الإسلام والعبقرية السامية والعبقرية الآرية (١٨٩٩) ، وحكمة الإشراق بالاعتماد على السهروردي ، وترجم كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي إلى الفرنسية (١٨٩٧ - ١٩٠٢) ، وقصيدة ابن سينا في النفس (المجلة الأسيوية ٩ ، ١٨٩٩) ، وتائية ابن الفارض في ٧٤٦ بيتاً ، وغير ذلك من الآثار الجليلة .

وقد اشترك كارّاداه ڤو في مؤتمر الموسيقى الذي عقد في معهد الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢ ، وأسهم في كثير من البحوث التي قدمها أعلام الدارسين

للموسيقى العربية .

والأستاد أمين الخولي علم من أعلام الأدب وأصول الدين ، وله مدرسة أدبية من تلاميذه ومحبيه هي« جماعة الأمناء » .

ولد أمين سنة ١٨٩٥ بشوشاي مركز أشمون بمحافظة المنوفية ، وتخرج في القسم العالي بمدرسة القضاء الشرعي ، وما إن تخرج منها سنة ١٩٢٠ حتى اختير ضمن هيئة التدريس بها ، ورأس تحرير مجلتها في سنتيها الأولى والثانية ، وفي سنة ١٩٢٣ عين إماما للمفوضية المصرية بروما ثم للمفوضية المصرية ببرلين ونفعه عمله في هاتين المفوضيتين فألمّ باللغتين الإيطالية والألمانية مما ساعده على الاطلاع على بحوث المستشرقين الألمان والطليان في الإسلاميات . وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٧ ليدرّس بقسم التخصص في مدرسة القضاء الشرعي ، وفي العام التالي نقل إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) مدرساً فأستاذاً مساعداً فأستاذاً فرئيساً لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ثم أستاذاً للأدب المصري ثم وكيلاً

لكلية الآداب . وظل في هذه الكلية حتى سنة ١٩٥٣ ، وهنالك نقل مستشارا فنّياً لدار الكتب المصرية ، ثم عين مديراً لإدارة الثقافة في وزارة التربية والتعليم ، وبلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٥ .

ومما يذكر للشيخ أمين أنه أنشأ هو وتلاميذه سنة ١٩٤٣ مدرسة أدبية هي الأمناء رسالتها الفن والحياة وهي تهدف الى تحقيق أهداف فنية نظرية وعملية ، وقد أصدرت الجمعية في سبيل تحقيق هذه الأهداف « مجلة الأدب » سنة ١٩٥٦ ورأس الشيخ أمين تحريرها ، وفي سنة ١٩٦١ عين عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وانتدب الأستاذ الخولي للتدريس وإلقاء المحاضرات ، كما كلف في أثناء عمله وبعد بلوغه سن التقاعد بشهود مؤتمرات دولية ، من ذلك أنه انتدب لتدريس الأخلاق والفلسفة وتاريخ الملل والنحل بالأزهر في قسم التخصص شعبة الأخلاق والتاريخ وشعبة الوعظ في التخصص الجديدة وكذلك في كلية

أصول الـدين ورأس قسـم اللغـة العـربية في معهـد الدراسـات العليا للمدرسـين ، وحـاضر في معهـد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ ، وفي معهد الدراسـات الإسـلامية ، ومثّـل مصر في مؤتمـر الأديان الدولي السادس الذي انعقد في بروكسل سنـة ١٩٣٦ ، وشهد مؤتمر المستشرقين الدولي بميونخ سنـة ١٩٥٧ ، ومؤتمر المستشرقين بموسكو سنة ١٩٦٠ .

وللشيخ أمين مقـالات وبحـوث في اللغـة والأدب والبلاغـة والنحـو والتفسـير نشرت في مجـلات علمية وأدبية . وللأستاذ أمين في أعناقنـا ايضـاً دَين كبـير لا يسعنا إلا الاعتراف به شاكرين له علمه وفضله ، فقد كان صديقاً للجنتنا ومعيناً صادقاً علق تعليقات قيمـة على كثير من مواد دائرة المعـارف الإسـلامية في الأدب والفقه ، ومن أهم تعليقاته ما كتبه في مواد أصول الفقه والبلاغـة . والتعليق القيم الـذي ننشره هنـا عن التفسير . وله كتاب في الإمام أنس بن مالك .

رحمه الله رحمة واسعة على ما أدى للإسلام والعلـم

من خدمات جليلة وما أسـدى الينـا من فضـل نذكره فنشكره

والله المعين

٤/ ٢/ ١٩٨٠

إبراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الإسلامية

تفسير القرآن الكريم

« التفسير » والجمع تفاسير والفعل فسّر : يطلق على الشروح التي تكتب على المؤلفات العلمية والفلسفية ، وهو يرادف الشرح . ويطلق على الشروح اليونانية والعربية على مؤلفات أرسطو . ونذكر فيما يلي أمثلة على ذلك مستقاة من كتاب ابن القِفطي المسمى « إخبار العلماء بأخبار الحكماء أو تاريخ الفلاسفة » : تفسير بَنَس الرومي لكتاب المجسطي وتفسيره للمقالة العاشرة من كتاب إقليدس ، وتفسير أبي الوفاء البوزجاني المنجم المشهور لكتابَي ديوفنطس ***Diophantes*** والخوارزمي في الجبر . وكتب محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور تفسيراً لكتاب فلوطرخس ***Plutarch*** في تفسير كتاب طيماوس

لافلاطون ، ويعرف كتابه باسم « تفسير التفسير » . وبرز حنين بن إسحاق ، الطبيب النصراني ، في الترجمة والتفاسير . وشرحت معظم التواليف المشهورة في العلوم اليونانية وكذلك بعض الكتب التي صنفت في العلوم العربية ، وقد ترجمت هذه الشروح أو كتبت باللغة العربية .

وفي الإسلام تدل كلمة تفسير على تفسير القرآن بصفة خاصة وعلى علم التفسير نفسه الذي يعرف باسم « علم القرآن والتفسير » وهو فرع خاص هام من علم الحديث يعلم في المدارس والجامعات . وهناك تفاسير عامة للقرآن لم تكتب على النسق المألوف ، على أن غالبها متصل السياق يشرح النص على نظام واحد فقرة فقرة بل كلمة كلمة أحياناً . وهي كثيرة أشهرها تفسير الطبري والزمخشري والبيضاوي .

والطبري هو المؤرخ العظيم المتوفى عام ٣١٠ هـ ، ويشمل تفسيره المطول كثيراً من الأحاديث المسندة الصحيحة .

أما الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ فقد كان فطناً

حاد الذكاء صاحب خلق مرهف الحس وفقيها في اللغة .

ولتفسيره « الكشاف » مكانة كبرى ، وقد شرحه بعض أفاضل الفقهاء مثل التفتازاني المتوفى عام ٧٩٢ هـ ، والسيد الشريف الجرجاني المتوفى عام ٨١٦ . وتفسير البيضاوي أشهر التفاسير ، وهو الذي يقرأ في المدارس ، ويحدد مذاهب أهل التقى من المسلمين في تفسير القرآن . وقد علق الكثيرون على هذا التفسير . ونذكر من التفاسير الأخرى : تفسير فخر الدين الرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ ويعرف باسم التفسير الكبير ، وتفسير إسماعيل حقي البروسوي المتوفى عام ١١٢٧ ، وله مقام كبير عند الترك . وأكثر هؤلاء العلماء من فارس .

وعلم التفسير قديم قد يرجع تاريخه إلى صدر الإسلام ، ويروى أن ابن عباس المتوفى عام ٦٨ بعد الهجرة كان حجة في التفسير ، وقد نسبوا إليه تفسيراً (محفوظ بالمكتبة الحميدية بإستانبول) . وتساءل النقاد المحدثون (گولدتسيهر ولامنس وغيرهما) عن

قيمة الأحاديث الواردة في هذه الكتب الجامعة ، ولم يصلوا بعد إلى رأي يعززها كثيراً . والظاهر أن كثيراً من هذه الأحاديث موضوع إما لتقرير مسألة شرعية وإما لأغراض كلامية وإما لمجرد التوضيح ، بل قد يكون لمحض اللهو والتسلية . ويذهب النقاد المحدثون إلى أنه لا أمل في العثور في هذه التفاسير على أخبار صحيحة عن أسباب نزول القرآن وإذاعته في الناس .

فللتفاسير إذن شأنها في الإحاطة بدقائق الشريعة والدين وفي القصص وفقه اللغة .

وفي أيامنا هذه حاول عالم مصري هو الشيخ طنطاوي [جوهري] أن يجدد دراسة التفسير ، وقد نشر تفسيراً فيه كثير من الآراء المأخوذة عن الفلسفة والعلم الحديث .

أ - تعليق على مادة " تفسير"

تلتقي مادتا - ف س ر ، س ف ر - في معنى الكشف ؛ ثم نرى السفر الكشف المادي والظاهر ، والفسر الكشف المعنوي والباطن . والتفعيل منه -

التفسير ـ كشف المعنى وإبانته .

ويقدر الأقدمون أن مثل هذه المعارف ، في اللغة والتفسير والحديث ، ليست علوماً بالمعنى المعروف في العلوم العقلية ؛ فيرى بعضهم ألا يتكلف للتفسير حدّاً ولا بيان موضوع ومسائل ، لأنه ليس قواعد وملكات ناشئة عن مزاولة القواعد ، كغيره من العلوم التي استطاعت أن تشبه العلوم العقلية ؛ فيكتفي في إيضاح التفسير بأنه : بيان كلام الله : أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها[1] ومنهم من يتكلف له التعريف فيذكر في ذلك ما يشمل غير التفسير من العلوم ؛ كعلم القراءات ؛ كما يشمل أقداراً من علوم أخرى يحتاج إليها في فهم القرآن ، كاللغة ، والصرف ، والنحو ، والبيان . والمسلك الأول أسلم ، وأبعد عن الإطالة بما ليس وراءه كبير جدوى .

والتفسير أحد العلوم ـ أو الدراسات ـ الشرعية التي حاول الأولون ضبطها باعتبارٍ ما كعادتهم ، فقالوا :

---

(١) المبادىء النصرية طبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ ص ٢٥ ، ٢٦ .

إنها إما مدونة لبيان لفظ القرآن ؛ وهو علم القراءة .
وإما مدونة لبيان السّنة النبويّة لفظاً وإسناداً ، وهو الحديث ، وعلم أصوله . وإما مدونة لإظهار ما قصد بالقرآن وهو التفسير . . إلى آخر ما يسوقونه من بيان هذا الاعتبار الضابط لأنواع العلوم الشرعية[1] .

ويعرضون في هذا المقام لذكر التأويل ، وأنه هو والتفسير بمعنى واحد ، أو أن التفسير أعم من التأويل ؛ أو غير ذلك مما لا نطيل القول فيه . . .
وأحسب أن منشأ هذا كله هو استعمال القرآن لكلمة التأويل ، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها ، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب . . ولعل من خير ما يحرر به معنى كلمة « تأويل » ما ذكره الراغب الاصفهاني مرويّاً عن ابن عباس ، في رسالته « مقدمة التفسير » التي طبعت ملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن

---

(١) الدر النضيد من مجموعة الحفيد لشيخ الاسلام احمد بن يحيى بن الحفيد الهروي طبعة التقدم سنة ١٣٢٢ هـ ، ص ٢ .

المطاعـن[١] ؛ ثـم تولى ابـن تيمية تفصيل هذا الموجـز وإيضاحه في رسالته « الإكليل في المتشابه والتأويل »[٢] وإن كنت لـم أره يشير إلى ما ساقه الراغب الاصفهاني من معاني التأويل ، مع أنه أصل فكرته ولبُّها .

ب ـ نشـأتـُـهُ

يرى ابن خلدون - أولَ كلامه عن التفسـير - في المقدمـة ، « أن القـرآن أنـزل بلغـة العـرب ، وعلى أساليب بلاغتهـم ، فكانوا كلّهم يفهمونه ، ويعلَمون معانيه في مفرداته وتراكيبه » . والقـول بأنهـم كلهـم يفهمونه فيه تعميم واسع ، لم يطمئن إليه الأقدمـون أنفسهم ، فهذا ابن قتيبة ، قبل ابن خلدون ببضعـة من القرون ، يقول في رسالته المسائل والأجوبة (ص ٨) « إن العرب لا تستـوي في المعرفـة بجميع ما في القرآن ، من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض » . وأحسب ابن خلدون قد شعر

---

(١) رسالة الراغب ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٩ ، ص ٤٢ .

(٢) هذه الرسالة مطبوعة ضمن الجـزء الثانـي من مجموعـة الرسائـل الكبرى لابن تيمية ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٣ .

بذلك فيما أورده بعد عبارته السابقة بأسطر ، فذكر أن في القرآن نواحي بحاجة إلى البيان ، وقال : كان النّبي -ﷺ- يبيِّن المُجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرِّفه أصحابه ، فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه » ، وتلك الأمور وغيرها من مواضع الحاجة إلى الإبانة ، قد أحوجت ـ منذ أول العهد الإسلامي ـ إلى بيان القرآن وتفسيره .

ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلي لأهله ، وتحدد حاجات حياتهم العملية ؛ ثم شعورهم ـ مع هذا ـ بأن التفسير شهادة على الله بأنه عني باللفظ ، كل أولئك جعلهم لا يقولون في تفسير القرآن إلا التوقيفي الذي نقل إليهم ، وروي عن صاحب الرسالة عليه السلام ؛ فكان أول ما ظهر من التفسير ؛ تفسير الرواية ، أو التفسير الأثري ، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا ؛ فرأينا أصحاب مبادىء العلوم ، حين ينسبون ـ على عادتهم ـ وضع كل علم لشخص

بعينه ، يعدون واضع التفسير - بمعنى جامعه لا مدونه - الإمام مالك بن أنس[1] - الأصبحي إمام دار الهجرة .

وهكذا تتصل نشأة التفسير ، بتاريخ تدوين الحديث ؛ وقد كان الإمام مالك رضي الله عنه ، من قدماء المدوِّنين في الحديث ؛ ولو أن كتابه « الموطأ » لا يشتمل - فيما رأيت - على الكثير من تفسير القرآن ؛ وفي كل حال قد حملت المجموعات الحديثية ، مقادير مختلفة من هذا التفسير ، حتى لنرى في صحيح البخاري ، كتابين - هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن - يشغلان حيِّزاً واضحاً من الكتاب ، ربما كان نحو الثمن منه .

ولعل هذا المعنى من صلة التفسير بالحديث ، هو الذي يفهم به قول الأستاذ كارّادي ڤو كاتب مادة التفسير في دائرة المعارف الإسلامية « أنه فرع خاص هام من علم الحديث ، يعلَّم في المدارس

---

(١) المبادىء النصرية ، ص ٢٦ .

والجامعات » . . . وإلا فإن ما استقر عليه الأمر أخيراً ، في مكان التفسير بين العلوم الشرعية ، هو ما سقناه آنفاً مبيناً بالاعتبار الذي لاحظوه في تنضيد هذه العلوم ؛ ولا يظهر فيه التفسير فرعاً خاصاً من علم الحديث ؛ ولو لاحظنا أن التفسير ـ فيما بعد ـ لم يقف عند الرواية ؛ وأن القول في التفسير غير النقلي قد اتسع واستأثر بجهد العلماء وعنايتهم ، لو لاحظنا هذا لوجدنا أن عد التفسير من فروع الحديث لا يظهر له وجه إلا ما أشرنا إليه من هذه النشأة ، واتصاله فيها بالرواة والمحدثين .

اشتهر برواية التفسير نفر من الصحابة رضي الله عنهم ، ويجتمع من هذه الرواية تفسير منسوب لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هو الذي طبع باسم « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس » ، للفيروز أبادي صاحب القاموس المحيط. وحسبنا في التعقيب على هذا ما يروى منسوباً إلى الإمام الشافعي ـ رض ـ من قوله : لم يثبت عن ابن عباس في التفسير

إلا شبيه بمائة حديث[1] مع أن هذا التنوير المنسوب إليه مطبوع في نحو أربعمائة صفحة من القطع العادي .

وأكثر ناس من التابعين رواية التفسير ؛ وتردد ذكر أسماء منهم ، كانت أحكام نقاد الرواية من القدامى عليهم ليست بذاك ، فالضحاك بن مزاحم الهلالي المتوفى عام ١٠٢ أو ١٠٥ هـ ـ وإن وثّقه نفر ، قد قالوا إنه روى عن ابن عباس ، ولم يلقه فطريقه عنه منقطعة ؛ وقالوا : في جميع ما روي نظر ، إنما اشتهر بالتفسير[2] . . . وفي هذه العبارة الأخيرة « إنما اشتهر بالتفسير » ما يدلك على درجة تقديرهم لرواية التفسير ؛ وعطية بن سعد العوفي المتوفى عام ١١١ ـ الذي يروي عن ابن عباس ، قد ضعفوه[3] . واسماعيل بن عبد الرحمن السدّي الكبير وإن وجد من

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد جـ ١ ، وخلاصة تذهيب الكمال في اسماء الرجال ص ١٥٠ طبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ ، والاتقان جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الاتقان : الموضع السابق ، والتذهيب ص ١٣٦ ، والشذرات جـ ١ .

(٣) التذهيب وهامشه ص ٣٠ .

قبله قد قالوا أنه ضعيف وكذاب شتام[1] ، والتفسير الذي جمعه قد رواه أسباط بن نصر ، وأسباط هذا لم يتفقوا عليه ، وقال النسائي : ليس بالقوي[2] .. ومحمد بن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ ـ وهو أحد الطرق عن ابن عباس ؛ مشهور بالتفسير ، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع ؛ ومع ذلك فإن وجد من قال : رضوه في التفسير ؛ فقد وجد من قال : أجمعوا على ترك حديثه ؛ وليس بثقة ولا يكتب حديثه ؛ واتهمه جماعة بالوضع[3] .. ومحمد بن مروان السدي الصغير ، الذي يروي عن ابن الكلبي السابق ، قالوا : إنه يضع الحديث ، وذاهب الحديث متروك ، وإذا كانت رواية هذا السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فهي سلسلة الكذب[4] ، ثم مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني المتوفى عام ١٥٠ ـ وهو المفسر الذي قالوا إن الناس

---

(١) الاتقان الموضع السابق ، والتذهيب ص ٢٢ .
(٢) الاتقان الموضع السابق ـ والتذهيب وهامشه ص ٢٨٧ .
(٣) التذهيب ص ٣٠٦ ـ والاتقان في الموضع السابق .
(٤) الاتقان : الموضع السابق ـ والتذهيب وهامشه ص ٣٣١ .

عيال عليه في التفسير ، وتنسب هذه الكلمة عنه إلى الشافعي نفسه ، ومع ذلك نراهم يقولون : إنه يروي عن مجاهد ولم يسمع من مجاهد شيئاً ، ويروي عن الضحاك ، ولم يسمع منه شيئاً ، فقد مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين ، ويكذّبونه ، ويضعفه من يستحسن تفسيره ، ويقول : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ! ، وينقلون أنه كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب[1] . وأخيراً هذا أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ـ وهو من أوائل من دوّنوا الحديث ـ قد رويت عنه أجزاء كبار في التفسير ، ومع ذلك لاحظ النقاد أن ابن جريج في التفسير لم يقصد الصحة ، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم .

***

وهكذا نجد غير قليل من النقد التفصيلي لرواة التفسير النقلي ؛ كما نجد النقد الإجمالي لهذه المرويات

---

(١) الاتقان : الموضع السابق .

فالإمام أحمد بن حنبل ، له الكلمة المعروفة : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي » أي ليس لها إسناد لأن الغالب عليها المراسيل[1] . ويقول ابن تيمية بعد ذكر وضع الحديث والأدلة القاطعة على كذبه : « وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة » كما يقول « والموضوعات في كتب التفسير كثيرة »[2] .

وهكذا لم يعتمد النقل التفسيري على أساس من الثقة وطيد ، كما سمعت من النقاد الأقدمين منذ الدهر الأول ، فإذا تساءل النقاد المحدثون عن قيمة الأحاديث الواردة في هذه الكتب الجامعة ، ولم يصلوا بعد إلى رأي يعززها كثيراً كما يقول كارًّا دي ڤو ، فإن هؤلاء النقاد المحدثين لم يجيئوا بجديد في هذا على ما ترى ، إذ إن الاتهام قديم . . .

وقد كان من وراء ذلك أن تأثرت تلك المنقولات

---

(١) ابن تيمية ـ مقدمة في اصول التفسير ، ص ١٤ ، ط دمشق .
(٢) المصدر السابق ص ١٩ .

بكل ما في البيئة الإسلامية من متناقل القصص الديني ، محمولاً إليها من مختلف الأنحاء ، فقد كان اليهود في ماضيهم الطويل قد شرَّقوا راحلين من مصر ومعهم من آثار حياتهم فيها ما معهم ، ثم أبعدوا مشرِّقين إلى بابل في أُسرهم . ثم عادوا إلى موطنهم وقد حملوا من أقصى المشرق في بابل ، وبعيد المغرب في مصر ما حملوا ؛ وجاء البيئة العربية الإسلامية من كل هذا المزيج ما جاء إلى جانب ما بعثت إليها الديانات الأخرى التي دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص ديني ، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئي القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التي نزلوها وعاشوا بها وإن كان الذي اشتهر من ذلك هو اليهودي ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزيّدات التي اتصلت بمرويّات التفسير النقلي باسم « الإسرائيليات » .

وابن خلدون في مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار

من هذه المرويات ، اعتبارات اجتماعية ، ودينية أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل ، الذي اتسعت له كتب التفسير المروي فاشتملت على الغث والسمين ، والمقبول والمردود ؛ فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الاجتماعية ، غلبة البداوة والأمية على العرب ، وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية ، في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ؛ وهم إنما يسألون في ذلك أهل الكتاب قبلهم . ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التي سوغت عنده هذا التلقي الكثير لمثل تلك المرويات في تساهل ، وعدم تحرٍّ للصحة ، أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام ، فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل ، فتساهل المفسرون في مثل ذلك ، وملأوا كتبهم بمنقولات عن عامة أهل التوراة الذين كانوا بين العرب ، وكانوا بداة مثلهم ، لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ؛ ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية التي يحتاط لها[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ بتصرف .

وسواء أكانت هذه هي كل ما هيأ لذلك من الأسباب ، أو كان وراءها أسباب أخرى ، في حياة الرواية ، وحياة العقيدة ، وضرورة تأثرها بما حولها ؛ فقد اتسعت على كل حال نُقول التفسير ، لمثل هذه المرويات التي يبين البحث أنها شملت مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة ، التي ترامت إلى علم العرب .

❊❊❊

وما بنا بعد الذي عرف من تنبه الأقدمين إليها أن نبين كيف تترك أو يتقى أثرها ، فقد تصدوا لهذا وتحدث عنه غير واحد من المفسرين ؛ وإن كان الذي سلم من التأثر به فيهم قليلاً أو نادراً .

وقد تداعى أشياخ الأزهر اليوم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات ، وهو أمر يسير الخطر ؛ ولعل الأجدى من هذا التجريد أن تنقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي ، على هدى قواعد القوم في نقد الرواية متناً وسنداً ، ليستبعد منها هذا

الكثير الذي لا يستحق البقاء ، ويستريح الناظرون في الكتاب الكريم من الاتصال به ، إذا ما حاولوا تفهم آيِه ؛ فلا يقفون عند شيء لا أساس له .

وأما هذه الإسرائيليات ، كما سموها ، فعلى الأشياخ أمامها واجب آخر في تاريخ الأديان وتحقيق صلاتها ؛ وهو واجب لا ينبغي أن يقوم به أحد قبلهم ، ذلك هو جمع هذه القصص ، ودرسها مردودة إلى أصولها ، مبينة مصادرها ليدل ذلك على مسالك التأثر والتأثير بين الأديان ، ومداخل اتصالها .

***

ونعود إلى ما نحن بصدده هنا أولاً ، وهو التفسير النقلي ، الذي كان أول أصناف التفسير نشأة ، فقد جعلت تتناقله الطبقات شفاهاً ، ثم تدويناً تدريجياً ، حتى أفردت له المؤلفات الخاصة ؛ واستمر ذلك ، إلى أن تغيرت موجهات الحياة ، وظهر تفسير جانب العقل فيه آثر من جانب النقل ، عُني المؤلفون به ، وإن بقي في كتبهم أثر من الروايات المنقولة ، يرجعون إليه بين

الفينة والفينة ، حتى فترت العناية عن إفراد التفسير المأثور بالتأليف المستقل .

ونكتفي بأن نشير هنا إلى ثلاثة من كتب تفسير الرواية ، أحدها شرقي ، والثاني غربي ، والثالث مصري . فأما الشرقي ، فهو كتاب « جامع البيان في تفسير القرآن » لابن جرير الطبري المحدث المؤرخ الفقيه ـ في ثلاثين مجلداً ، وهو مطبوع . . ويقول كارًا دي ڤو ، في مادة تفسير بالدائرة ؛ « ويشمل تفسيره [ابن جرير] المطول كثيراً من الأحاديث المسندة الصحيحة » . . .

وأكبر الظن أن هذا الحكم لا يقوم على فحص خاص ؛ فابن جرير رحمه الله ، لم يسلم من الرواية عن أولئك الذين قدمنا آراء نقاد الرجال فيهم ؛ وقد لوحظ عليه مثلاً ، أنه يورد الكثير من طريق السدّي وهو ما لم يورد منه ابن أبي حاتم شيئاً ، حين التزم أن يخرج منه أصح ما ورد[1] ولعل تفسير ابن

(١) الاتقان ٢ : ٢٢٤ .

جرير محتاج إلى النقد الفاحص ، احتياج غيره من تلك المرويات التفسيرية ، على ما قدمنا .

وشخصية ابن جرير الأدبية والعلمية تجعل كتابه مرجعاً غير قليل الأهمية ، في الصنف الثاني من التفسير ، أي تفسير الدراية ، فترجيحاته للمعاني المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة ، فوق ما جمع كتابه من روايات أثرية . . .

***

وأما الكتاب الغربي ، فهو الكتاب الذي عرف باسم « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » لأبي محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عطية الغرناطي الأندلسي ـ ت ٥٤١ هـ ـ الذي يقول عنه ابن خلدون في المقدمة : « إنه لخص فيه كتب التفاسير كلها ـ أي تفاسير المنقول ـ وتحرَّى ما هو أقرب إلى الصحة فيها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى » ، وهو مخطوط ، منه بضعة أجزاء في دار الكتب المصرية ، وفي التيمورية

رجعت إليها فوجدت من جملة وصفها ، أنه يعنى بالشواهد الأدبية للعبارات ، ويهتم بالصناعة النحوية ، في غير إسراف ، ولا يعنى بالوقوف مثل عنايته بالقراءات ، ويورد من التفسير المنقول ، مع الاختيار منه ، في غير إكثار ؛ كما ينقل عن الطبري ، ويناقش المنقول عنه أحياناً . .

وأما الكتاب الثالث المصري ، فيحسن أن نشير بين يدي الكلام عنه ، إلى ما كان لمصر من حظ قديم في التفسير المنقول ، فقد حدثوا عن أحمد بن حنبل ، أن بمصر صحيفة في التفسير ، رواها علي بن أبي طلحة الهاشمي ـ وهو طريق جيد في الرواية عن ابن عباس ؛ لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً ؛ وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس ، كما ينقل ذلك عن ابن حجر[1] .

وفي التفسير المنقول خلف جلال الدين السيوطي

---

(١) الاتقان ٢ : ٢٢٣ ، وفيه بعد هذا النقل « ان ابن ابي طلحة لم يسمع التفسير عن ابن عباس ، وانما أخذه عن مجاهد او سعيد بن جبير ، ويقول ابن حجر « ان الواسطة ثقة فلا ضير في ذلك » .

المصري ـ ت ٩١١ هـ ـ كتاب « الدر المنثور في التفسير » وهو مطبوع ؛ وقد ذكرت هذه الكتب الثلاثة في الكلام عن نشأة التفسير من حيث كانت تفسيراً نقلياً ، وهو أول ما ظهر من صنوف التفسير ، وإن كنت أقدر أن هذه الكتب قد تفاوتت قيمها وأحوالها بهذا التراخي البعيد في الأزمنة ـ من القرن الثالث إلى العاشر ـ وأن ما فيها من تفسير مأثور قد تأثر بما حوله من عوامل وموجهات ، يتبينها جلياً من يتصدى لتاريخ التفسير والتأليف فيه .

***

٥ ـ تدرّج التفسير

وهنا أحب أن يقدر الدارس ، أني لا أتصدى لكتابة تاريخ للتفسير ، أو تخطيط هذا التاريخ . وإنما هي إشارات عامة مجملة عن المعالم الكبرى في حياته . . وذلك أننا لا نجرؤ على التفكير في كتابة تاريخ للتفسير يمكن أن يسمى تاريخاً بالمعنى الصحيح إلا بعد أن نقف على ما خلفت تلك العهود الطوال من

آثار فيه ، وهي كثيرة واسعة ، متنوعة المقاصد والاتجاهات ، يدهشك ما تقرأ في وصفها وسعتها وجلال مؤلفيها ؛ ففي القرن الثاني كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري رحمه الله [1] وناهيك بهما جلالة قدر . ولأبي الحسن الأشعري المتكلم ، كتاب المختزن ، لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها ، وجعلها حجة لأهل الحق ؛ وذكر بعضهم أنه رأى منه طرفاً وكان بلغ سورة الكهف وقد انتهى إلى مائة كتاب[2] . إلى غير ذلك من صنيع له في التفسير يذكرون عظيم قيمته . وللإمام الجويني تفسير كبير ، وللقشيري تفسير كبير . وإلى جانب هؤلاء رجال اللغة والأدب يذكرون منهم : أبا طالب المفضل بن سلمة الكوفي (ق ٣) له كتاب معاني القرآن ؛ وابن الأنباري (ق ٤) كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدها .

وقد ألف كتاب « مشكل القرآن » أملاه فبلغ فيه

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٨٦ ط بولاق .

(٢) تبيين كذب المفتري ص ١٣٣ ط الشام .

إلى « طه » وما أتمه . وقد أملاه سنين كثيرة[1] ولأبي هلال العسكري كتاب المحاسن في تفسير القرآن خمس مجلدات[2] . . ولو رحت أذكر لك جانباً من هذه الطرائف التي كتبها أئمة الفنون المختلفة في التفسير لملأت من ذلك صحفاً وصحفاً ، فهلا ترى معي ، أن من القحة علمياً أن نزعم أننا نتحدث في شيء من تاريخ التفسير ، قبل أن نعبر قدماً في البحث عن هذه الكتب وجمعها ودرسها ؟!! أحسب أن نعم .

وهل يؤود محبي العلم القرآني ، ثم هذه المعاهد الدينية الفسيحة ، ثم الدولة معهم أن يجمعوا من ذلك كل ما عرفت الدنيا من هذا المكتوب عن القرآن ، أو صورة منه على الأقل ، قبل أن يفكروا في أشياء كثيرة لا تقدم العلم الديني ولا تؤخره ؟!!

وإذا ما نظرنا إلى المعالم الكبرى في تدرج التفسير ، وجدنا أن صلة الإسلام بالحياة ، ومنزلة القرآن في ذلك من حيث هو مرجع المسلمين في شؤونهم المختلفة ، قد

---

(١) طبقات الادباء لابن الانباري ص ٣٣٢ .

(٢) ترجمته من مقدمة كتابه ديوان المعاني .

جعلت تدرج الحياة يظهر أثره واضحاً في حياة التفسير ، فبعدما كان يشيع التحرج من القول في القرآن ، حتى في تفسير لفظه كالأب[1] ؛ والخبر[2] ، صار الأمر إلى اختلاف الناس في أن تفسير القرآن : هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه ؟! فرأى قوم أن من كان ذا أدب وسيع ، فموسع له أن يفسره ، وقال قوم : لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً أديباً ، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي عن النبيّ - ﷺ - وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة - رض - . إلخ . وكان التحقيق ، أن المذهبين هما الغلو والتقصير ، فمن اقتصر على المنقول إليه ، فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط[3] . وعلى أساس هذا التحقيق ذهبوا يبينون ما ينطوي عليه القرآن ، وما يحتاج إليه

---

(١) قصة عمر - رضه - في تفسير كلمة الاب .

(٢) قصة أبي عبيدة والاصمعي في تفسير كلمة الخبر .

(٣) مقدمة التفسير للراغب الاصفهاني ص ٤٢٢ و٤٢٣ ، وفي العبارة بعض اضطراب يسهل الترجيح معه بأن بعض لفظها محرف ، وقد اخذت منها بالبعيد عن ذلك .

مفسره من العلوم ؛ ويذكرون شرائط المفسر ويعدون من ذلك علوماً لغوية وعقلية ، وموهبية ، من تكاملت فيه ، خرج من كونه مفسراً للقرآن برأيه ؛ لأن القائل بالرأي إذ ذاك إنما هو من لم تجتمع عنده الآلات التي يستعان بها في ذلك ، ففسره تخميناً وظناً[1] وهو التفسير بمجرد الرأي .

هكذا يلمح الناظر في تدرج التفسير طرفين متقابلين ، ووسطاً أو أوساطاً ، يختلف قربها من الطرفين ، فأما أحد هذين الطرفين وأولهما فهو : التحرج من القول في القرآن على نحو ما يروى عن رجال من الصدر الأول ومن تلاهم ، والمنقول في ذلك غير قليل ، وحسبك أن مالك بن أنس ، وهو الذي يذكر أصحاب المبادىء انه واضع التفسير ـ بمعنى مدوّنه ـ يروي هو نفسه أن سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً[2] . . وأما الطرف الثاني المقابل فهو الذي

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢٥ .

(٢) أصول التفسير لابن تيمية ص ٢١ .

تلمحه من عبارة الراغب السابقة ، وهو إجازة الخوض في القرآن لكل أحد . والغزالي في الإحياء[1] . . بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه يقول : فبطل أن يشترط السماع في التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله ؛ كما قال قبل ذلك : . . « إن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً ، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه » . . هما طرفا نقيض ـ كما يقال ـ وتستطيع أن تلمح بينهما انتقالات تدريجية متعددة ، فبعد التحرج ، أمكن الوقوف عند المنقول ، وكان ذلك المنقول قليلاً ثم كثر النقل واتسع ، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقاً به ؛ ثم داخلت النقل محاولات فهم شخصي تقبلوا منها أولاً ما يرجع إلى اللغة وحدود دلالة الكلمات . . ثم ظلت محاولات الفهم الشخصي تزداد وتتأثر بالمعارف المختلفة حتى كان من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة طويلة لا

(١) ابو حيان : البحر المحيط ١ : ٣٤١ .

حاجة بها في علم التفسير كالذي فعله الرازي في تفسيره حتى قال عنه بعض المتطرفين من العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير[1] وإذا كان الراغب الاصفهاني في أوائل القرن الخامس يرى خوض كل أحد في القرآن يعرضه للتخليط ، فهذا أبو حيان في القرن الثامن يقول إن ما ذكره الرازي وغيره في التفسير يشبه عمل النحوي ، بينا هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة ، إذا هو يتكلم في الجنة والنار ؛ ثم يقول : « ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخبيط في أقصى الدرجة[2] » .

وقد اختلف حظ المفسرين من هذا التعرض، وإن قلّت سلامتهم جميعاً منه .

***

وإنك لتلمح على غرار هذا تدرج التدوين والتأليف في التفسير ؛ فبينا توجد بمصر أو بغيرها صحيفة فيه ،

---

(١) ١ : ٢٦١ ط الحلبي .

(٢) ابو حيان ، الموضع السابق .

كما سبق ، إذا هو جزء أو أجزاء تُلقيت عن الصحابة ، ثم هي أكثر من ذلك مما يجمع أقوال الصحابة والتابعين ؛ ثم يختلط الفهم العقلي فيه بالتفسير النقلي رويداً ، كالذي تراه في مثل تفسير ابن جرير الطبري ، وما ذكرناه من كتب التفسير النقلي .

ثم يغلب هذا الجهد العقلي على الكتب ، فيكون أظهر ما فيها ، وإن لم تخل مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول مثلاً أو يتصل بغيرها من المروي ، فترى الزمخشري في كشافه ، ينحو هذا النحو الخاص في تفسير القرآن تفسيراً ينصر مذهباً بعينه ، ولكنه لا يخلي كتابه من هذا المنقول ، بل من ضرب ضعيف منه ، كالحديث الذي يسوقه في فضائل القرآن سورة سورة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم[1] . وهكذا تداخل الصنفان ، واتجهت الكتب اتجاهات متنوعة ، بعد ذلك .

د ـ طرائق التفسير

رأينا ظهور الصنف الثاني من التفسير ، المقابل

---

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ١٩ .

لتفسير الرواية النقلي ، وهو تفسير الدراية العقلي ، ورأينا كيف أنهما اتصلا وتداخلا ، وإذا كان ابن خلدون يقول في المقدمة : « إن ثانيهما قلّ أن ينفرد عن الأول ، إذ الأول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا ـ الثاني ـ بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة . . نعم قد يكون ـ الثاني ـ في بعض التفاسير غالباً[1] » إذا قال ابن خلدون هذا فإنا لنقول له : إن هذا الثاني قد وصل القرآن بثقافة المتصدين لتفسيره وصلاً قوياً ، شديد الأثر ، انتهى إلى التخليط الذي ذكره أبو حيان ، فأظهره ألواناً من التفسير هان فيها أمر النقل . . وهي طرائق من التفسير لعلها مما لا يسهل حصره وتبويبه ، إذ كانت متأثرة باعتبارات كثيرة متعددة ، وإذا كانت علوم اللسان بعدما صارت صناعة ، قد وجهت التفسير ؛ فإن علوماً عقلية ونقلية قد وجهته توجيهات مختلفة ، وإن مقاصد وأغراضاً في الحياة العملية ، سياسية وغيرها ، قد اشتركت في هذا التوجيه أيضاً ، وتركت هذه وغيرها مناهج وكتباً

---

(١) المقدمة ص ٣٨٤ .

كثيرة ، وأثرت في مجرى الحياة والثقافة الإسلامية تأثيراً قوياً فعالاً . .

ولئن كان گولدتسيهر في كتابه « اتجاهات التفسير » قد تحدث عن تفسير الرواية ، والتفسير الاعتقادي ، والتفسير الصوفي ، والتفسير التشيعي ، وتفسير التجديد الإسلامي الحديث ، فألمَّ بأصول كبرى ينطوي تحتها كثير من طرائق التفسير واتجاهاته ، فإن إلى جانب ذلك تفسيرات لغوية ونحوية ، وأدبية وفقهية ، وتاريخية ، وغيرها ، لعله لا يسهل إدماجها في هذه الأصول ، وليس يصح - فيما أرى - أن نتحدث عن هذه الاتجاهات واحداً واحداً ، لنبين أثرها في توجيه فهم القرآن ، أو أثر اتصالها بالقرآن في حياة تلك العلوم والفنون نفسها إلا بعد أن يكتمل لنا العثور على أكثر ما يمكن من كتب ودراسات في أنواع التفسير المختلفة ، ثم تنسيقها ودرسها في روية وإتقان ، درساً يهيىء لمثل هذا القول الشامل فيها .

***

على أنا إذا ما تركنا في هذا الإجمال الخاطف الكلام

عن التفسير الصوفي أو التفسير التشيعي ، فلم نقف عندهما لبيان ما زاداه على معاني القرآن ، وللحكم على منهجهما وما ماثله من مناهج ، لها طابعها المخالف ؛ فلم نتحدث عن الظاهر والباطن والحد والمطلع وما أشبه ذلك ، ولا عما أخذ من القرآن من علوم خفية أو خاصة ، وكان من عذرنا في ذلك - فوق الإجمال وضيق الفرصة - أن مثل هذه الاتجاهات قد قلّ تعرض الحياة لها ، وخفت بلواها بها الآن . ثم إذا ما تركنا الحديث عن الفنون الأدبية المختلفة ، وصلتها بالقرآن إلى فرصة أفسح ، وأهدأ ، من التاريخ الأدبي ، فإنا رغم هذا كله لنشعر بضرورة القول في صلة التفسير بالعلوم العقلية الظاهرة ، لأن فكرة تفسير القرآن بالعلم وأخذ هذه العلوم من القرآن ، قد حاولها نفر من القدماء والمحدثين جميعاً ، حتى نوافق على قول الأستاذ كارًا دي ڤو ، في ختام مادة تفسير ما معناه أن تضمين التفسير كثيراً من الآراء المستقاة من الفلسفة والعلوم الحديثة محاولة في تجديد دراسة التفسير ، لا نوافق على هذا لأن وصل القرآن بالفلسفة والعلوم العملية محاولة جد قديمة .

٥ - التَفسِيرُ العِلمي

وهو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها ، وقد وقع ذلك على رغم ما قرر في ميادين علمية إسلامية مختلفة ، من قواعد فهم عبارة القرآن ، واتسع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً، فشمل إلى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية ، وظاهرة وخفية ، سائر علوم الدنيا - ولعل الغزالي - فيما رأيت - كان إلى عهده ، أكثر من استوفى بيان هذا القول ، فهو في الإحياء يعرض لهذا[1] . . ويقرر « أن كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ، ودلالات عليه » ؛ وأن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها ؛ ثم هو يزيد ذلك بياناً وتفصيلاً في كتابه جواهر القرآن[2]

---

(١) في الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل جـ ١ : ٢٥٩ - ٢٦٤ ط الحلبي .

(٢) طبع بمطبعة كردستان العلمية بمصر سنة ١٢٢٩ هـ .

الذي يبدو أنه ألفه بعد إحياء علوم الـدين[1] إذ يعقـد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم مطلقاً من القرآن ، بعدما بين في الفصل الرابع قبله ، كيفية انشعـاب العلــوم الــدينية كلهــا منــه عن تقسيمات وتفصيلات تولاها ، وهو بعد ذكر العلوم الدينية وما لا بد منه لفهمها من العلوم اللغـوية ، وبعـد ذكر علــم الطب والنجوم ، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه وعلم السحـر والـطلسمات ، وغـير ذلك ، يشير إلى أن وراء ذلك علوماً أُخـر ، يعلـم تراجمها ، ولا يخلو العالم ممن يعرفها ، وفي الإمكان والقوة أصناف من العلوم لم تخرج بعدُ إلى الوجود وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها ، وعلـوم كانـت قد خرجت إلى الوجود ، واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلـوم أخر ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها ، والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين . . ثم يعقـب بأن

---

(١) الغزالي : جواهر القرآن ص ٢٨ ، ٢٩ .

هذه العلوم ، ما عددناها وما لم نعدها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد ، من بحار معرفة اللـــه تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، إن البحر « لو كان مداداً لكلماته لَنَفِد البحر قبل أن تنفد » ؛ وعرض في بيان أفعال اللـــه ، والحاجة في فهمها إلى مختلف العلوم كفعل الشفاء والمرض لا يفهمان إلا بالطب ، وفعله في تقدير الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان ، لا يعرف إلا بالهيئة ، إلى أن يشير أخيراً إلى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن ، من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها[1] ، وهكذا ظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين في تفسير القرآن ، كما ظهرت آثار التصوف واضحة في التفسير ، وكما ظهرت آثار النِّحَلِ والأهواء فيه ظهوراً جلياً . . . واستمرت هذه النزعة في التفسير العلمي ، وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن ، أو بيان صلاحية الإسلام

---

(١) جواهر القرآن ٣١ ـ ٣٤ .

للحياة ، وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسيره القرآن ، فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن ، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم ، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر ، فأخرجت لنا مثل كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية ، والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية ، لمحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب من أهل القرن الثالث عشر الهجري ، وكتاب تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص الحيوانية له ، وقد طبع الكتاب الأول في القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ والثاني في سورية سنة ١٣٠٠ هـ . ومثل رسالة عبد الله فكري باشا وزير المعارف المصرية سابقاً في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية ، طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ . وانحاز إلى هذه الفكرة من رجال الإصلاح الإسلامي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي فاستخرج[١] من القرآن

---

(١) طبائع الاستبداد،ص ٢٦ ـ ٢٨ .

مكتشفات حديثة ، يقول : إنه ورد التصريح أو التلميح بها في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب ، لا يعلم الغيث سواه . . كما يعرض لها في إعجاز القرآن ، الأديب المصري المرحوم مصطفى صادق الرافعي[1] فيعقد فصلاً عنوانه « القرآن والعلوم » يجنح فيه إلى مثل ما سبق من احتواء القرآن على جمل العلوم وأصولها ، ويأخذ في ذلك بالبعيد والقريب ، إذ ينقل كلمة السيوطي في الإتقان ، حول أخذ الباحثين علومهم منه ، ويعلق على استخراج علم المواقيت من القرآن ، فيقول[2] « وإذا أطلق حساب الجمّل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها ، وأسرارها ، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث » ؛ كما يشير إلى استخراج مستحدثات الاختراع ، وغوامض

---

(١) اعجاز القرآن له ، ص ١٤٥ - ١٦٦ .
(٢) الاعجاز له ص ١٥١ (هامش) .

العلوم الطبيعية من القرآن : ويذكر شواهـد لذلك ، حتى ينتهي إلى أن يقول : [1] « ولعـل متحققـاً بهـذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحـكم النظـر ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ، ولا يلتوي عليه أمر من أمره ، لاستخرج منه إشـارات كثـيرة ، تومـئ إلى حقائق العلوم وإن لـم تبسط من أنبائها ، وتدل عليها وإن لم تسمِّها » . . ولعل من أكثر من جمع في هذا وأطال المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسـيره . ومما يتصل بهذا من قرب ، ما ظهر من مؤلفات علمية عني أصحابها عناية خاصة بهذا الجانب ، وتوخوا هذا التطبيق ، كمحاضرات المرحوم الأستـاذ محمـد توفيق صدقي في سنن الكائنات وما أشبهها .

***

و- إنكار التفسير العلمي

إذا كان الاتجاه إلى التفسير العلمي قديماً ، وكانت العنـاية به أكثـر نوعـاً ما ، في العصر المتأخـر ، فإن

---

(١) الاعجاز له ص ١٦٤ .

المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضاً ، ولعله اليوم أقل رواجاً عند المثقفين . . . فأما المخالفة القديمة فيه ، فهي ما يبديه الأصولي الأندلسي ، أبو إسحق ابن موسى الشاطبي - ٩٧٠ هـ - في كتابه الموافقات[1] في أثناء أبحاثه عن القرآن ، إذ تكلم أولاً عن أن هذه الشريعة المباركة أمّية ، لأن أهلها كذلك ، فهو أجرى على اعتبار المصالح ، ودلل على ذلك بأمور ، ثم عقب بفصل عن : أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن الشيم ، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل ، وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه ، وذكر من ذلك علم النجوم وعلم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها . ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية ؛ ومنها الطب ، وفنون البلاغة ، هذا من العلوم الصحيحة . وذكر من الباطل علم العيافة والزجر ،

(١) طبع السلفية ١٣٤١ هـ ، جـ ٢ ، ص ٤٦ وما بعدها .

والكهانة وخط الرمل ، والضرب بالحصى ، والطيرة ، وقد أبطلتها الشريعة . . وهو يبين في كل ذلك ، أن الشريعة في تصحيح ما صححت ، وإبطال ما أبطلت ، قد عرضت من ذلك ما تعرفه العرب ، ولم تخرج عما ألفوه . . وبعد شرح هذه الفكرة المبينة لرأيه في علوم القرآن ، يتقدم لبيان ذلك بإسهاب وإيضاح ، ويعقد لذلك بحثاً خاصّاً يقول فيه : ما تقرر من أمية الشريعة ، وأنها جارية على مذهب أهلها وهم العرب ، ينبني عليه قواعد : ـ منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا الحد في الدعوى على القرآن ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتعاليم والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح » .

ثم ينظر في حال السلف ، نظرة علمية ، فيحتج بها على صحة دعواه ، ويقول : وإلى هذا ، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن ، وبعلومه ، وما أودع فيه ولم

يبلغنا أنه تكلم أحد منهم[1] في شيء من هذا المدعى ، سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك ، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلَغَنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا ؛ نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب ، أو ما ينبني على معهودها ، مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا . .

وبعدما احتج الشاطبي لدعواه ، عرض لأدلة أصحاب هذا التفسير العلمي ، فقال في تلخيص حججهم : ربّما استدلوا على دعواهم :

---

(١) يذكرنا قول الشاطبي هذا بما يورده الغزالي في الاحياء ـ ١ ، ٢٦١ ، من قول علي :
من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وتجد النفس حتى من صياغة هذه العبارة اشياء واشياء !!

١ ـ بقوله تعالى : ونزلنا عليك تبياناً لكل شيء ، وقوله : ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ، ونحو ذلك .

٢ ـ بفواتح السور ، وهي مما لم يعهد عند العرب ، وربما نقل عن الناس فيها .

٣ ـ بما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب ـ رض ـ وغيره .

ثم تقدم لنقض هذه الأدلة واحداً واحداً ، فقال عن الأول : فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف أو التعبد . . والمراد بالكتاب في قوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، اللوح المحفوظ . ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية . . وفي الرد على الثاني يقول : وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب به عهداً ، كعدد الجمَّل الذي تعرَّفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير ، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلَها إلاَّ اللــه تعالى ، وغير ذلك ، وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يدَّعِه أحد ممن تقدم فلا دليل فيها على ما ادعوا ، وفي الرد على

الثالث يقول : وما ينقل عن عليٍّ أو غيره ـ وقد أورد منه طرفاً ـ في هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبه يوصَل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقوَّل على الله ورسوله فيه . . وتلك هي الخلاصة الشاملة لما أكمله الشاطبي بياناً في غير موضع من الموافقات ، بعدما عرض لأصله الجامع وفيما أشرنا إليه من صفحات . .

وإذا كان هذا هو الرأي القديم العهد ، في فهم القرآن فهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ، ويأخذ كَلِمَه باصطلاحات حادثة بعده بأزمنة غير قصيرة فإنك لتضم إلى هذا البيان ، من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه ، فمنها :

١ـ الناحية اللغوية ، في حياة الألفاظ وتدرج دلالتها ؛ لو ملكنا منها ما لا بد لنا أن نملكه ، في تحديد هذا التدرج ، وتأريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة

الواحدة ، وعهد استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معان وإطلاقات لم تعرف لها ، ولم تستعمل فيها ، أو إن كانت تلك الألفاظ قد استعملت في شيء منها ، فباصطلاح حادث في الملة ، بعد نزول القرآن بأجيال . . وسترى فيما يلي ـ من بيان عن التفسير اليوم ، وكيف يتناول ـ ما يكشف عن هذا الجانب كشفاً كافياً .

٢ ـ الناحية الأدبية ، أو البلاغية إن شئت ، ـ والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمي ، كلاماً يوجه إلى من خوطب به من الناس في ذلك العهد ، مراداً به تلك المعاني المذكورة مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد ما جازت آماداً فسيحة ، وجاهدت جهاداً طويلاً ، ارتقى به عقلها وعلمها !!! وهب هذه المعاني العلمية المدعاة كانت هي المعاني المرادة بالقرآن فهل فهمها أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها ؟!

وإذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العملية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن ، ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهمة لدقائقها !! وإن كانت لم تفهم منها ، ولم يدركها أصحاب اللغة الخلَّص من عباراتها ـ كما هو الواقع فعلاً ـ فكيف تكون معاني القرآن المرادة ؟! وكيف تكون تلك الألفاظ مفهمة لها ، وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال !

٣ ـ وهناك الناحية الدينية ، أو الاعتقادية ، وهي التي تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ؟؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلاً ثابتاً لها ، تختم به الرسالات السماوية ، كما هو الشأن في القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لا يقفون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محدودة ، ولا ينتهون منها عند مدى ما ؟! فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن على نحو ما سمعت آنفاً ، وهي جوامع لا

يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطُه لها بعد يسير من الزمن أو كثير ، وما ضبطَه منها القدماء قد تغير عليهم فيما مضى ، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما تلا !!

والحق البيِّن أن كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفيهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدّوه مصدراً فيه .

وأما ما اتجهت إليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ، ناحية من نواحي بيان صدقه ، أو إعجازه ، أو صلاحيته للبقاء . . . إلخ فربما كان ضره أكثر من نفعه . على أنه إن كان لا بد لأصحاب هذه النوايا ومن لف لفَّهم من أن يتجهوا إليه ، ليدفعوا مناقضة الدين للعلم ، فلعله يكفي في هذا ويفي ، ألا يكون في كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده ، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ، ومسايرة للعلم ، وخلاصاً من النقد . . على أني حين أتسمَّح بهذا القدر في سبيل إرضاء رغبات هؤلاء الطيبي النية ، لا أنسى

أن أذكرهم بأن التناول الفني لحقائق الكون ومشاهده ، هو التناول الذي يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس ، ويوجهه لعامتهم وخاصتهم ؛ وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم أيضاً ـ كما هي مهمة الدين والغاية من تلاوة كتابه بينهم جميعاً ، وهذا التناول إنما يقوم على المشهود البادي من ناحية روعته في النفس ، ووقعه على الحواس ، وانفعال الناس به ؛ لا من ناحية دقائق قوانينه ، ومنضبط نواميسه في معادلات جبرية أو أرقام حسابية ، أو بيان جاف لخصائصه وحقائقه . . وبقيام هذا التناول على المشاهد ، والمدرك بادىء الرأي ، والمؤثر في النفس المثير للانفعال ، لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلمية ، والخصائص المجربة لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التي لا يراد من تناولها إلا إثارة الشعور بجلالها وجمالها ، ودلالتها على عظمة القوة المدبرة لها المحققة لنظامها ، ولو التزم في شيء من هذا تصحيح المقررات العلمية لأخل هذا الالتزام كثيراً بالأهداف الفنية الوجدانية ، التي يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها

عن طريق التأمل المتدين ، والاعتبار النفسي العاطفي المريح ، قبل كل شيء آخر . .

ومن هنا قد يبدو في تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شيء من المقررات العلمية ؛ وإن أمكن التوفيق بينهما . ولا أحسب أن عليه بأساً بشيء من هذا ولا فيه ضير . . . فخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبينون الصدق ، أو الإعجاز ، أو الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمي ، خير لهم أن يقدروا مثل هذا الاعتبار ، فلا يتكلفون ما يتكلفون من ربط الكتاب بالعلم ؛ على أنهم إن كانوا لا بد فاعلين فحسبهم ـ كما تقدم ـ ألا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ، دون أن يمكن التوفيق بينه وبينها . . . وبيان هذا الأصل مما لا يسمح المقام فيه بأكثر مما قيل .

وهناك نواح أخرى من النظر محدثة ، تؤيد الرأي القديم الذي بينه الشاطبي في كيفية فهم عبارة القرآن ؛ وتجعل من الخير ألا توجه العناية إلى مثل هذا الضرب من التفسير العلمي ، لأنه ليس بذي جدوى على

القرآن نفسه ، والقرآن غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة ، ورياضة نفوس الناس جميعاً على اختلاف حظهم من العلوم الطبيعية الرياضية وما إليها .

ز - ألوان التفسير

وإنما نشير تحت هذا العنوان المتجوز إلى ظاهرة واضحة الأثر هي : أن الشخص الذي يفسر نصّاً ، يلون هذا النص - ولا سيما النص الأدبي - بتفسيره له وفهمه إياه . وإذ إن المتفهم لعبارة هو الذي يحدد بشخصيته المستوى الفكري لها ، وهو الذي يعين الأفق العقلي ، الذي يمتد إليه معناها ومرماها ، يفعل ذلك كله ، وفق مستواه الفكري وعلى سعة أفقه العقلي . . لأنه لا يستطيع أن يعدو ذلك من شخصيته ، ولا تمكنه مجاوزته أبداً . . فلن يفهم من النص إلا ما يرقى إليه فكره ويمتد إليه عقله . وبمقدار هذا يحتكم في النص ويحدد بيانه ، فهو في حقيقة الأمر يجر إليه العبارة جرّاً ، ويشدها شدّاً ، يمطُّها حيناً إلى الشمال ، وحيناً

إلى الجنوب ، وطوراً يجذبها إلى أعلى ، وآونة ينزل بها إلى أسفل ؛ فيُفيض عليها في كل حالة من ذاته ، ولا يستخرج منها إلا قدر طاقته الفكرية واستطاعته العقلية ؛ وما أكثر ما يكون ذلك واضحاً ، حينما تسعف اللغة عليه ، وتتسع له ثروتها ، من التجوزات والتأولات ، فتمد هذه المحاولة المفسرة ، بما لديها من ذلك .. وإن المستطاع منه في اللغة العربية لكثير وكثير . . .

على هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن ، تطبع تفسيرهم له ، في كل عهد وعصر ، وعلى أي طريقة ومنهج ؛ سواء أكان تفسيرهم له نقلياً مروياً ، أم كان عقلياً اجتهادياً . . ولعله لا يبدو هذا الأثر الشخصي واضحاً في التفسير المروي لأول وهلة ، ولكنك تتبينه إذا ما قدرت أن المتصدي لهذا التفسير النقلي إنما يجمع حول الآية من المرويات ، ما يشعر أنها متجهة إليه ، متعلقة به ، فيقصد إلى ما تبادر لذهنه من معناها ، وتدفعه الفكرة العامة فيها؛ فيصل بينها وبين ما يروى حولها في

اطمئنان . . . وبهذا الاطمئنان يتأثـر نفسياً وعقليّاً ، حينا يقبـل مروياً ويعنـى به ؛ أو يرفض من ذلك مروياً ـ إن رفضه ـ ولم يرتح إليه . . . وكذلك راج بين القـوم ـ كما لاحـظ ابـن خلـدون فيما أوردنـا من عبارته ـ ما هـم في شوق إليه وتعليق به ، من أخبار بدء الخلق ، ونشأة الوجود ، وتفصيل الأحداث الكبـرى في تاريخ الإنسانية الأولى ، لأميتهم ، وقلة المتـداول بينهم منه ، فكانـت كثـرة الإسرائيليات !! وكان كل أولئك صورة عقلية لهذا العصر الأول .

ومن هنا نستطيع القول بأنه حتى في رواج التفسير النقلي وتداوله ، تكون شخصية المتعرض للتفسير هي الملونة له ، المروجة لصنف منه .

أما حين يصير التفسـير عقلياً اجتهـادياً ، فإن هذا التلوين الشخصي يبدو أوضح وأجلى . وقد أشرنا إلى ما لثقافة متعاطي التفسير ، من الأثر في تفسيره ، إذ ان ثقافته ، ونـوع معارفـه هو الـذي يحـدد ناحية عنايتـه وميدان نشاطه ؛ ومـا ينتفـع به في استخـراج معانـي العبارة ، وما يعنى به قبل غيره من هذه المعاني فيتأثر

التفسير بذلك كله ، ويتأثر تاريخ هذه المعارف نفسها بمزاولة التفسير ، أو الاهتمام به ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك . فأنت ترى ـ في جلاء ـ أن التفسير ، على هذا التلوين ـ يتأثر بالعلوم والمعارف التي يلقى بها المفسر النص ، ويستعين بها في استجلاء معانيه ، كما أن وصل هذه العلوم بالتفسير ، يكسب هاتيك العلوم نفسها ، ضرباً من الثروة ، يقدر أثره في تاريخها . . فالنحوي يلقى القرآن بأصول الصنعة الإعرابية ، يحكمها في فهم معانيه ، ويحتكم إليها في تحديد مدلولاتها ، فيلون التفسير بمنهج دراسته وأسلوبها . . ثم هو بعد ذلك يترك في حياة النحو بهذا الوصل آثاراً ، تعود على دراسته ، ويلتمس بيانها ، في تاريخ حياة هذه المادة . . وهكذا تنوعت ألوان التفسير ، وتعددت بتعدد ثقافات المتصدين له ، فقد سمعت أن أبا الحسن الأشعري المتكلم ، في كتابه الذي سموه « المختزن » لم يترك آية تعلق بها بدعي ، إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق . . إلخ . بل ينقلون من قوله هو نفسه في وصف كتابه هذا : إن

فيه من ضروب الكلام مسائل للمخالفين لم يسألوه عنها ولا سطروها في كتبهم ، ولم يتجهوا للسؤال ، وأجاب عنه بما وفقه الله تعالى له[1] . . . وقد جاءك نبأ ما فعل الفخر الرازي في تفسيره ، من جمع أقوال الحكماء والفلاسفة ، وشُبههم في الكلاميات ، حتى قيل فيه ما قيل آنفاً . فهذا ومثله تلوين كلامي للتفسير يضفي على القرآن ، من منهج علم الكلام ويوجه تفسيره ، وقد انتهى به إلى نزعات مذهبية خاصة لعل من أشهرها كشاف الزمخشري في منحاه الاعتزالي . . . كما تجد تلويناً فقهياً للتفسير ، وآخر بلاغياً ، وغيرهما قصصياً . . وهكذا مما تعد فيه كتب كل صنف وحدها ؛ وتوصف في التاريخ التفصيلي للتفسير . . كما يبين فيه المحبب المقبول من هذا التلوين ؛ والمنفر المكروه منه ، كالتلوين الباطني والإشاري المتطرف ، وما إلى ذلك من تفسير مردود ، يخرج القرآن عن وضعه ، ويناقض الحكمة الإلهية والغرض الإصلاحي

---

(١) ابن عساكر - تبيين كذب المفتري ، ص ١٣٣ ، ط دمشق ، بتغيير في الضمائر فقط .

من وصله بحياة الدين والدنيا ، وقد وصف القدماء مثل هذه الألوان المنفرة المستقبحة ، واستبعدوها .

أما ما عدا هذا المكروه من التلوين ، فقد ينجو من هذا الاستبعاد والاستنكار ، ولكن يبقى النظر في تحقيقه للفائدة المرجوة من القرآن ، فيسلم فيه بذلك أو لا يسلم . . .

وفي هذا يقول الأستاذ الإمام[1] رحمه الله : « . . . إن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي » . . كما يقول في هذا الصدد أيضاً[2] : « إن التفسير قسمان : أحدهما جاف مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من

---

(١) تفسير الفاتحة ط المنار سنة ١٣٤٥ هـ ، ص ٩ ، ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

التمرين في الفنون كالنحو والمعاني » . . ويقول عن التلوين الفقهي بخاصة[1] « الأحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هي أقل ما جاء في القرآن ؛ وإن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها » والأستاذ رحمه الله حين ينفر من هذه الألوان يطمئن إلى تلوين آخر وصفه في غير موضع ، فمما قال[2] عنه : « والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب ، من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه ، وما وراء هذه المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله » وكذلك يقول[3] عنه « التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس ، على أنه فرض كفاية » هو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول ، وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

والهداية المودعة في الكلام ، ليتحقق فيه معنى قوله (هدىً ورحمة) ونحوهما من الأوصاف ، فالمقصد الحقيقي وراء تلك الشروط والفنون ، وهو الاهتداء بالقرآن ، هذا هو اللون الذي يجمل في نظر الأستاذ الإمام ، وسنعود للنظر إليه بعد كلمة يسيرة عن :

٥ - خِطَّـةُ التَفْسِـير

منذ عصر مبكر[1] جعل القوم يتناولون تفسير القرآن

.

(١) يقول عكرمة مولى ابن عباس - ت ١٠٥ هـ - « لقدفسرت ما بين اللوحين » - اتقان ٢ : ٢٢٥ - ولابن جريج - ت ١٥٠ هـ - ثلاثة أجزاء كبار في التفسير - اتقان ٢ : ٢٢٤ فهذه العبارة وتلك الأجزاء الكبار اذا ما انضم اليها ملاحظة قوة اتصال القرآن بالحياة الاسلامية ، وشديد عناية القوم بأخذ الاحكام وغيرها منه ، وحاجتهم الملحة في ذلك ، كل اولئك وما يشبهه مؤذن بأن تتبعهم لتفسير القرآن ، واستيفاءهم ذلك في سوره وآيه قد كان عملاً مبكراً ، ولا أميل الى تأخيره لنهاية القرن الثاني واوائل الثالث - وصاحب ضحى الاسلام - ٢ : ١٤١ - يميل الى عد الفراء - ت ٢٠٧ هـ - اول من تعرض لآية آية حسب ترتيب المصحف وفسرها على التتابع ، آخذاً ذلك من نص في فهرست ابن النديم ، وكتاب معاني القرآن للفراء في ايدينا ، وهو شبيه في تناوله للآي على ترتيبها في السور بكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة - ت ٢٠٩ هـ أوحوالى هذا . فان القطعة التي منه بأيديناتتناول السورعلى ترتيبها ، =

على ترتيب سوره ، يقفون منها عند بعض الآية ، أو الآية ، أو الجملة من الآي ، فيبيّنون ما فيها على اللون الذي يؤثره المتناول وتضفيه شخصيته على تفسيره ؛ وما زالت تلك الخطة هي السائدة في التفسير ، حتى عندما يعنى المفسر بناحية خاصة من القرآن ، ويؤثر موضوعاً بعينه ، يتتبعه في القرآن . فبين يدينا مثلاً كتاب أحكام القرآن للجصاص ـ ت ٣٧٠ هـ ـ وهو فقهي الاتجاه ، يعنى بهذا الجانب قبل كل شيء ؛ ولكنه مع هذا يتبع تلك الخطة التقليدية في تفسير السور على ترتيبها والآي في السور . . . وأقل من ذلك أن يتتبع المفسر موضوعاً خاصّاً في القرآن ، يجمع متفرقه ، فترى مثل كتاب التبيان في أقسام القرآن لشمس الدين بن قيم الجوزية ـ ت ٧٥١ هـ ـ الذي قصد فيه إلى درس موضوع خاص ، هو القسم في القرآن ، قد انتظم

= وتعرض لما في السورة من آي تحتاج لبيان مجازها اي المراد بها ، فليس للفراء أولية شخصية في هذا ، بل كانت تلك على ما يبدو خطة العصر ، ولعله لو وقع الينا شيء مما قبل ذلك العهد لرجح ان هذا التناول المرتب لتفسير سور القرآن وآيه اقدم عهداً من صنيع الفراء وأبي عبيدة بغير قليل .

نظرات عامة لصنيع القرآن في الأقسام ، ولكنه مع ذلك لا يستقصي تتبع النظائر ويتولاها بالتفسير المقابل الذي يستعان فيه على فهم بعض القرآن ببعضه فهماً يعطي الفكرة الموحدة عن المنهج القرآني في القسم بشيء خاص ، ويحصي ما ورد من ذلك فينظر في جملته ، وإن كان قد ألم بشيء من هذا إلماماً سريعاً لا يشفي . . . وتلك الخطة الغالبة في تفسير القرآن على ترتيب سوره وآيه فيها ، مما هو موضع للنظر ، نقول فيه كلمة ضمن ما نعرض له من حديث عن :

التفسير اليوم

والقدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الإسلامية قد قسموها ثلاثة أقسام : علم نضجَ واحترقَ وهو النحو والأصول ؛ وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث ؛ وعلم لا نضج ولا احترق ، وهو علم البيان والتفسير . . . ويشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . . فيكون قول القدماء أنفسهم بعدم نضجهما إذناً صريحاً منهم بالمحاولة

المحددة في حياة هاتين المادتين ، وقد تقدمت إلى هذه المحاولة ، تحت الشعار الذي اتخذته لنفسي وهو : أول التجديد قتل القديم فهماً ، وأراد اللـه أن يكون في دائرة المعارف الإسلامية أول تسجيل لإجمال هذه المحاولة المحددة في مادة البلاغة ، وها هي ذي أول من يسجل أصول هذه المحاولة في مادة التفسير .

١ ـ القرآن كتاب العربية الأكبر

في الذي مضى من القول عن « ألوان التفسير » بيان للأغراض التي كان يقصد إليها المفسرون ، ويعنون بتحقيقها أكثر من غيرها ؛ وقد سمعنا الأستاذ الإمام رحمه الله ، ينقدهم فيما آثروا من أغراض ، ويرى أن الغرض الأول والأهم في التفسير ، أن يكون محققاً لهداية القرآن ورحمته ، مبيِّناً لحكمة التشريع في العقائد والأخلاق ، والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح. . إلخ فالمقصد الحقيقي عنده : هو الاهتداء بالقرآن ، وهو مقصد جليل ولا شك . . . يحتاج المسلمون إلى تحقيقه .

لكن ليس بدعاً من الرأي أن ننظر في هذا المقصد لنقول : إنه ليس الغرض الأول من التفسير ، وليس أول ما يعنى به ويقصد إليه ، بل إن قبل ذلك كله مقصداً أسبق ، وغرضاً أبعد ، تنشعب عنه الأغراض المختلفة ، وتقوم عليه المقاصد المتعددة ولا بد من الوفاء به قبل تحقيق أي مقصد آخر ، سواء أكان ذلك المقصد الآخر ، علمياً أم عملياً ، دينياً أم دنيوياً . . وذلك المقصد الأسبق والغرض الأبعد هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبي الأعظم ، فهو الكتاب الذي أخلد العربية ، وحمى كيانها وخلد معها ، فصار فخرها ، وزينة تراثها ، وتلك صفة للقرآن يعرفها العربي مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ، ما دام شاعراً بعربيته مدركاً أن العروبة أصله في الناس ، وجنسه بين الأجناس ، وسواء بعد ذلك أكان العربي مسيحياً أم وثنياً ، أم كان طبيعياً دهرياً لا دينياً ، أم كان المسلم المتحنف ، فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب في العربية ، ومكانته في اللغة ، دون أن يقوم ذلك على شيء من

الإيمان بصفة دينية للكتاب ، أو تصديق خاص بعقيدة فيه .. وليس هذا شأن العـرب فحسـب ، بل إن الشعوب التي ليست عربية الدم أصلاً ، ولكن وصلها التـاريخ ، وسـير الحياة بهـذه العروبـة ، فارتضـت الإسلام ديناً ، أو خالطـت العـرب فخالطـت دماءهـا بدمائهم ، ثم اتخذت العربية لغة ، حتى صارت تلك العربية أصلاً من أصول حياتها الأدبية .. حتى هذه الشعوب التي ربطتها بالعربية هذه الأواصر الوثقى ، إلى أن صارت العربية عنصراً أساسياً ، وجانباً جوهرياً من شخصيتها اللغوية الفنية ، قد صار لكتاب العربية الأعظم ، وقرآنها الأكرم مكانه بين ما تعنـى به ، من دراسة أدبية وآثار فنية قولية ، فألزمها كل أولئك تناول هذا الكتاب بدراسة أدبية ، تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة ، إن كانت عربية النجار أو كانت قد اتصلـت بتلك العروبـة اتصـالاً قوياً ، دفـع شخصيتهـا ، وسـير وجودهـا ، ووجـه حياتهـا .. فالعربي القح ، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط ، يقرأ هذا الكتاب الجليل ، ويدرسه درساً أدبياً ، كما

تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة ، وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً وفاء بحق هذا الكتاب ، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل ، بل هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً ولو لم تنطوِ صدورهم على عقيدة ما فيه ، أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس ، فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس ، سواء أنظر إليه الناظر على أنه كذلك في الدين أم لا .

وهذا الدرس الأدبي للقرآن في ذلك المستوى الفني ، دون نظر إلى أي اعتبار ديني ، هو ما نعتده وتعتده معنا الأمم العربية أصلاً ، العربية اختلاطاً ؛ مقصداً أول ، وغرضاً أبعد ، يجب أن يسبق كل غرض ويتقدم كل مقصد . . . ثم لكل ذي غرض أو صاحب مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبي أن يعمد إلى ذلك الكتاب فيأخذ منه ما يشاء ، ويقتبس منه ما يريد ، ويرجع إليه فيما أحب من تشريع ، أو اعتقاد ،

أو أخلاق ، أو إصلاح اجتماعي ، أو غير ذلك . . . وليس شيء من هذه الأغراض الثانية يتحقق على وجهه إلا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوحد دراسة صحيحة كاملة مفهمة له ، وهذه الدراسة هي ما نسميه اليوم تفسيراً ؛ لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها .

فجملة القول : أن التفسير اليوم ـ فيما أفهمه ـ هو : الدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة المناحي ، المتسقة التوزيع . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف ، غير متأثر بأي اعتبار ، وراء ذلك . وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه . . هذه هي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه ؛ وعلى هذا الأساس نتقدم لبيان طريقة تناوله ؛ ومنهج درسه .

٢ ـ أثر ترتيب القرآن في تفسيره

وننظر بين يدي الخطة في مسألة الترتيب لنبني عليها الرأي في كيفية تناول التفسير ، وهل تتبع فيه الخطة

التي سادت حتى اليوم ـ كما تقدم ـ فندرسه على ترتيب سوره وآيه في السور ، أو على غير هذا من ترتيب ؟

والقــرآن ـ كما هو المعــروف ـ لم يرتـــب على الموضوعات والمسائل ، فيفرد كل شيء منهـا ببـاب أو فصل ؛ يجمـع ما ورد فيه عن هذا الموضـوع أو تلك المسألة ؛ فليس على ترتيب كتب العقائد مع ما فيه من أصول العقيدة ، وليس على ترتيب كتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع ، ولا هو كذلك على نسـق كتـب الأخـلاق أو التـاريخ ولا القصص ، ولا غـير ذلك . . بل ليس على ترتيب بعض كتب الدين حين أفردت أحداث الحياة بأسفـار عنونـت كل سفر منهـا بحادث ؛ أو حين جرت على تسلسل حياة فرد خصت كل حين منها بقسم ، كما لم يرتب على شيء من تاريخ ظهور آياته . . . إنما جرى القرآن على غير هذا كله ، فعرض لكثير من الموضوعات ولـم يجمـع منهـا واحـداً بعينـه ، فيلتقـي أولـه بآخــره ، ويعثـر به في مكان معين . . وإنما نثر ذلك كله نثراً ، وفرقـه تفريقـاً ، فالحـكم التشريعـي في أكثـر من موضـــع ، والأصلي

الاعتقادي قد عرض له غير مرة ؛ والقصة قد وزعت مناظرها ومشاهدها في جملة أماكن ، وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنوناً من القول ، وتمر بألوان من الأغراض المختلفة ، تعرض لها سورة أخرى ، فيتكامل العرضان ؛ وتتم الفكرة بتتبعها في مواطن متعددة ، وذلك لحكمة ومرمى يبين في غير هذا المكان من الدراسة القرآنية التي تعرض للكلام في الترتيب .

وإنما ننظر إلى ما لهذا الواقع من أثر في طريقة تناول القرآن بالتفسير ، وتتبعه لفهم معانيه وأغراضه ، فيبدو للناظر أن تفسيره سوراً وأجزاء لا يمكن من الفهم الدقيق ، والإدراك الصحيح ، لمعانيه وأغراضه ، إلا إن وقف المفسر عند الموضوع ليستكمله في القرآن ويستقصيه إحصاء ، فيرد أوله إلى آخره ، ويفهم لاحقه بسابقه . . فالناظر في سورة البقرة مثلاً يجد من الحديث عن المؤمنين وحالهم ما أحسب أنه يفهم الفهم الصحيح ، إذا ما قورن بما في سورة « المؤمنون » ، من الجزء الثامن عشر ـ ثم هو واجد في سورة البقرة عن المنافقين وحالهم ما لا يفهم على وجهه إلا مع سورة

« المنافقون » في الجزء الثامن والعشرين . . وقصة آدم في سورة البقرة ، إنما تفسر مع ما ورد عنها في سورة الأعراف ، والحجر والكهف وغيرها .

وأنت ـ أرشدك الله ـ مقدر أن الذي يفهم جملة نصوص خاصة بموضوع واحد ، إنما يصل إلى صحيح معناها ودقيقه ، بمعرفة سابقها ولاحقها ومتقدمها ومتأخرها ، إذا ما كان الزمن قد تباعد بين تلك النصوص ، وبخاصة مثل هذا التباعد الزمني الذي بين آي القرآن ، فقد طال سنين وسنين . . . ثم هذا المتفهم محتاج إلى إدراك الملابسات والمناسبات والأسباب التي أحاطت بما يفهمه من النصوص ؛ إذ هي أضواء لا بد منها لاستجلاء المعنى . وترتيب القرآن لم يرعَ شيئاً من تقدم الزمن وتأخره ، فمكيُّه يتخلل مدنيَّه ، ويحيط به ، ومدنيُّه يتخلل مكيَّه ويحيط به ؛ وهكذا ترى من النظر في ترتيب القرآن على سوره ـ أي ترتيب كان في المصاحف المختلفة ـ ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له ؛ بل يقضي ما كان من أمر الترتيب ، بالنظر الجديد والترتيب الخاص لآي

الموضوع الواحد ، بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحي ، التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها ، توصلاً إلى الفهم الصحيح ، والمعنى الدقيق .

فجملة القول ، إن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً ، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً ؛ وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة ، ومقامات مختلفة ، ظهرت في ظروف مختلفة ، وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً ، وأن تجمع آيهُ الخاصة بالموضوع الواحد ، جمعاً إحصائياً مستقصًى ، ويعرف ترتيبها الزمني ، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى ، وأوثق في تحديده . . . وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضاً مفرقاً لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة ، ثم يعود المفسر بعد ذلك في السورة الأخرى إلى مثل هذه الموضوعات أنفسها . .

فإن عجل النظرة الجامعة إلى هذه الموضوعات في القرآن كله حينما عرضت له في أول سورة ، فقد آل به الأمر إلى تفسير الموضوعات ، وكانت وقفاته الطوال المتباعدة عند كل موضوع تركاً لتفسير السورة وإخلالاً به ، وإن تعرض للموضوع الواحد مراراً كلما عرض في السور المختلفة فقد أخل بوحدة الموضوع حين ترك الإلمام الجامع به في مقام متصل .

فصواب الرأي ـ فيما يبدو ـ أن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً ، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سوراً أو قطعاً . . ثم إن كانت للمفسر نظرة في وحدة السورة وتناسب آيها ، واطراد سياقها فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفي للموضوعات المختلفة فيها .

٣ ـ المنهج الأدبي في التفسير :

وإذا ما كان وجه الرأي أن التفسير الأدبي لكتاب العربية الأكبر ، هو أول ما يجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية أدبية سواء أكانوا عرباً أم غير

عرب . . . وإذا ما كان وجه الرأي أن هذا التفسير الأدبي ينبغي أن يتناول القرآن موضوعاً موضوعاً ، لا قطعة قطعة ، فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبي إذن صنفين من الدراسة ، كما هي الخطة المثلى في درس النص الأدبي[1] وهذان الصنفان هما : أ ـ دراسة حول القرآن . ب ـ دراسة في القرآن .

فأما دراسة ما حول القرآن :

فمنها دراسة خاصة قريبة إلى القرآن ، ومنها دراسة عامة بعيدة ـ فيما يبدو من ظاهر الرأي ـ ولكنها في تقدير المنهج الأدبي لازمة لفهم القرآن فهماً سليماً دقيقاً .

والدراسة الخاصة هي ما لا بد لمعرفته ، مما حول كتاب جليل كهذا الكتاب : ظهر في نحو عشرين عاماً أو كذا وعشرين عاماً ، ثم ظل مفرقاً سنين حتى جمع في أدوار مختلفة وأحوال مختلفة ، وكان جمعه وكتابته عملاً ساير الزمن طويلاً ، وناله من ذلك ما ناله . . ثم هناك

---

(١) بيان هذه الخطة ، وتصحيح الوضع فيها مما انتظمته دراسات كاتب هذه المادة ؛ في « الادب المصري » بكلية الآداب ، من جامعة فؤاد الاول « مخطوطة » .

قراءته ، ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية ، بفعل النهضة الجادة التي أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية ، فقد كانت هذه القراءات عملاً ذا أثر واضح في حياة الكتاب وفهمه . وتلك الأبحاث ـ من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما إليها ـ هي التي عرفت اصطلاحياً ـ منذ حوالى القرن السادس الهجري ـ باسم علوم الة آن[1] بعدما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل ، والبيان المتفاوت في الاستيفاء ، حسب عناية المفسر واهتمامه ، ومثل تلك الأبحاث جد لازمة ، في نظر دارسي الآثار الأدبية ، ولا بد منها لفهم النصوص المدروسة ، والاتصال بها اتصالاً مجدياً . . بل كان لزوم هذه الأبحاث لفهم القرآن مما شعر به القدماء أنفسهم ، حتى قال السيوطي في مقدمة كتابه « الإتقان في علوم القرآن » : « وقد جعلته مقدمة للتفسير الكبير الذي شرعت فيه وسميته

---

(١) محاضرات علوم القران لكاتب هذه المادة في كلية الآداب « مخطوطة » .

بمجمع البحرين ومطلع البدرين الجامع لتحرير الرواية ، وتقرير الدراية ، ومن الله أستمد التوفيق والهداية[1] . » وكان أكثر المفسرين يلمون في مقدمة تفاسيرهم بشيء من القول في النزول والجمع ، والقراءات . . وقد أفرد ما حول القرآن من تلك الموضوعات حديثاً بالعناية ، عند من يمارسون هذه الأبحاث من الغربيين . وكان أجل من كتب في ذلك منهم الألماني نولدكه **T. Noeldeke** صاحب كتاب تاريخ القرآن ***Geschichte des Qorans*** ؛ الذي اشترك في تحقيقه وإكمال طبعته الثانية نفر من علماء الألمان مثل شفالي وزيمرن وبرجشتراسر ، وقد جاهد أحد شبابنا من خريجي كلية الآداب فترجم الكتاب بمعونة من في الكلية من أساتذته الألمان وعارفي لغتهم ، لكن حالت عوائق تافهة دون طبع الكتاب ، مع أن أبحاث هؤلاء المحدثين قد أفاضت على تلك الموضوعات ألواناً من العناية العلمية ، إن لم تخل من الاتهام فإنها لن تخلو من روح النقد والتمحيص ، التي لا بد منها في تناول

---

(١) الاتقان ، جـ ١ : ٧ .

هذه الأبحاث . . وهي دراسات ضرورية لتناول التفسير كما أشرنا ، حتى ما ينبغي مطلقاً أن يتقدم لدرس التفسير من لم ينل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن ؛ ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً مسترشداً بتلك الملابسات الهامة في فهم القرآن .

وأما ما حول القرآن من دراسة عامة ، فهو ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية ، التي ظهر فيها القرآن وعاش ؛ وفيها جُمع وكُتب وقُرىء وحُفظ ، وخاطب أهلها أول من خاطب ، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها ؛ وإبلاغها شعوب الدنيا . فروح القرآن عربية ، ومزاجه عربي ، وأسلوبه عربي ، « قرآناً عربياً غير ذي عوج » . . والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثل الكامل ، والاستشفاف التام لهذه الروح العربية ، وذلك المزاج العربي ، والذوق العربي[1]

---

(١) ان للقرآن معاني ومرامي انسانية اجتماعية بعيدة الهدف ابدية العمر ، لكن ذلك كله إنما جاء الانسانية في ثوبه العربي وبذلك =

ومن هنا لزمت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية ، أرضها بجبالها وحرارها وصحاريها وقيعانها ، وسمائها بسحبها ونجومها ، وأنوائها ؛ وجوها بحرّه وبرده وعواصفه وأنسامه ، وطبيعتها بجدبها وخصبها ، وقحوطها أو نمائها ، ونباتها وشجرها . . . إلخ . فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين . . . مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة ؛ من ماض سحيق ، وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة ؛ وحكومة في أي درجة كانت وعقيدة بأي لون تلونت ؛ وفنون مهما تتنوع ؛ وأعمال مهما تختلف وتتشعب ، فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة ، وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربي المبين . . وإذا جهدت الدراسة الأدبية في أن تعرف عن تلك العربية والعروبة أكثر وأعمق وأدق ما يعرف تبتغي بذلك درس أدبها درساً صحيحاً ؛ فإن

= التعبير العربي ، والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتعينة لفهم ذلك كله والوصول اليه .

هذا القرآن رأس هذا الأدب ، وقلبه الخافق ، ولن يدرس درساً أدبياً صادقاً ، يفي بحاجة المتعرض لتفسيره إلا بعد أن تستكمل كل وسائط تلك المعرفة للبيئة العربية مادية ومعنوية . أما ما دمنا نقرأ التشبيه العربي القرآني ، أو التمثيل العربي القرآني ، فإذا مادته الأضواء العربية ، والظواهر الجوية العربية ، والحي أو الجماد المشهود في بلاد العرب لا نعرف عنه شيئاً وليس عندنا عنه صورة خاصة ، فما يحق لنا ـ مع هذا ـ أن نقول إننا نفسر هذا القرآن أو نمهد لفهمه فهماً أدبياً ، يهيىء للانتفاع به في نواح أخرى ، وما دمنا نذكر الْحِجْر ، والأحقاف ، والأيكة ، ومَدْيَن ، ومواطن ثمود ومنازل عاد ، ونحن لا نعرف عن هذه الأماكن إلا تلك الإشارات الشاردة ، فما ينبغي أن نقول إننا فهمنا وصف القرآن لها ولأهلها ، أو إننا أدركنا مراد القرآن من الحديث عنها وعنهم ، ثم لن تكون العبرة بهذا الحديث جلية ولا الحكمة ولا الهداية المرجوة مفيدة مؤثرة !!

ولعله ليس بالكثير مطلقاً أن نطلب مثل تلك

الدراسات المفصلة لبيئة القرآن الذي هو أحدث الكتب السماوية عهداً ، ولغته التي بها نزل لا تزال لغة حية تتكلمها مئات الملايين ، وأدبها هو أدب غير واحدة من الأمم ، تدعي لنفسها حق الحياة ؛ ثم هي أصل كبير للهجات ولغات تقوم دراستها الصحيحة على دراسة هذه العربية . . ليس بالكثير في شيء أن نطلب هذه الدراسة لبيئة القرآن وهذه حالته ! لأن الكتب الدينية الأخرى أقدم من القرآن بالقرون المتطاولة وبيئاتها قد عفت معالمها ، ولغاتها قد تخلت عنها إذ خرجت من الحياة ؛ ولكنا نجد ما في هذه الكتب الدينية جميعاً من حي وجماد ، وحادثة ، وعلم ، قد أفرد بالدراسة ووضعت له الكتب المطولة والمعاجم المستوفاة حتى ما يفوت شيء منها من يبتغي معرفته ، وهذا كله إلى جانب الدراسات التاريخية والأدبية والدينية ، والقانونية ، والاجتماعية العميقة والمقارنة التي أصابتها تلك الكتب . ولا أتحدث عن الترجمات والنشرات ، فتلك نواح أخرى ليست الآن موضع حديثنا ، ولكن بها تعظم المأثمة في هذا التقصير الدراسي لكتاب هو

أجلّ وأقدم ، وأوثق ما عرفت العربية من آثارها الأدبية !

تلك إلمامة بما حول القرآن من دراسة ، وهي في جملتها ترجع : إما إلى تحقيق النص وضبطه وبيان تاريخ حياته . . . وإما إلى التعريف بالبيئة التي فيها ظهر ، وعنها تحدث ، وبين مغانيها ومعانيها تقلب . . . وبعد استيفاء ذلك يكون التقدم إلى :

دراسة القرآن نفسه :

وهي تبدأ بالنظر في المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك ، تدرج دلالة الألفاظ ، وتأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية في تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية ، التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة . . . وقد تداولت هذه اللغة العربية في تلك النهضات أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء والماضي

والحاضر ، فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية ، حتى أصبح من الخطأ البيِّن أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل ، فهماً لا يقوم على تقدير تام لهذا التدرج والتغير ، الذي مس حياة الألفاظ ودلالتها ، وعلى التنبه إلى أنه إنما يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت الذي ظهرت فيه وتليت أول ما تليت على من حول تاليها الأول عليه السلام[1] ـ وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التي تقف في وجه التفسير العلمي للقرآن على ما أشرنا إليه من قبل .

وإذا كان هذا هو الأصل الأول في فهم دلالة ألفاظ القرآن ، فمن لنا به مع أن معاجمنا لا تسعف عليه ولا تعين . ؟ فأكبر ما نملكه منها ـ وهو « لسان العرب »

---

(١) لا ينكر ان خلود هذا الكتاب ورياضته الدائمة للحياة مع صلته الوتقى بها . كل ذلك يهيىء لفهم معان متحددة أو نامية . لكنا مع عدم انكار هذا القدر نرى أنه لا ينبغي أن تنسب الى القرآن من هذه المعاني الا ما كان طريق فهمه الحس اللغوي للعربية ، وسبيل الانتقال اليه هو دلالة اللفظة الأولى في عصر نزول القرآن . . وبيان هذا والتمثيل له مما لا يتسع له المقام هنا .

لابـن منظـور المصري ـ قد كتـب على طريقـة المقص والغــراء ، كما يقــول العصريون ، فتجــاورت فيه نصوص تباعدت عصـور أصحابهـا ، فابـن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري (٣٢١ هـ) ، يجاور ابن الأثير في أوائل القرن السابـع الهجـري (٦٠٦ هـ) وتمازج لغـويات الأول دينيات الثانـي . . والقامـوس المحيط ـ كما نعرفه ـ عصارات غـير ممتزجـة لثقافـات متغايرة متباينة ، من فلسـفية عقلية إلى طبية عملية ، فأدبية لغوية ، فدينية اعتقادية ، أو غيرها . . معاجمنا لا تسعف على شيء من تحقيق هذا الأصل الثابـت في تدرج الألفاظ . . . فليس أمام مفسر القرآن حين يبتغي المعنى الأول لألفاظه إلا أن يقوم بعمل في ذلك ، مهما يكن مؤقتاً وقاصراً فإنه هو كل ما يمكن اليوم ، وإلى أن نملك قاموساً اشتقـاقياً تتـدرج فيه دلالات الألفـاظ ، وتتمايز فيه المعاني اللغـوية على ترتيبهـا ، عن المعانـي الاصطلاحية على ظهورها . . فلا معدى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره ، لينحي فيها المعاني اللغـوية عن غيرهـا ؛ ثم ينظـر في تدرج

المعاني اللغوية للمادة نظرة ترتبها على الظن الغالب ، فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق ، حتى يطمئن ـ ما استطاع ـ إلى شيء في ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة ، كان هو المعروف حين سمعتها العرب في آي الكتاب . . . والمفسر في هذا التمييز والنظر ملمّ ـ ما أمكن ـ بمحدث الدراسة في أنسب اللغات وصلة ما بينها ، ليطمئن كذلك إلى أن الكلمة عربية أصيلة ، أو هي دخيلة ؛ وإن كانت فما بيئتها ؟ وما معناها الأول ؟ . . ثم هو محاذر كذلك من اندفاع معاجمنا في رد الكلمات إلى أصل عربي يشابهها في اللفظ ، مع التكلف في الاشتقاق والربط . .

وإذا ما فرغ من البحث في معنى اللفظة اللغوي ، انتقل بعده إلى معناها الاستعمالي في القرآن يتتبع ورودها فيه كله ، لينظر في ذلك ، فيخرج منه برأي عن استعمالها : هل كانت له وحدة اطردت في عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة ؟ وإن لم يكن الأمر كذلك ، فما معانيها المتعددة التي استعملها فيها القرآن ؟ وبذا يهتدي بمعناها أو معانيها اللغوية إلى

معناها أو معانيها الاستعمالية في القرآن ؛ وهو بما ينتهي إليه من كل أولئك يفسرها مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها .

وقد حاول الراغب الأصفهاني منذ قرابة ألف عام ، أن يعطينا مفردات القرآن في قاموس خاص بها . وعانى فيها شبيهاً بما وصفنا أو بشيء من أصل فكرته ، ولكنه لم يتم التعقب اللغوي ، ولم يستوف التتبع القرآني ، وفاته مع ذلك كله فرق ما بين عصره وعصرنا في دراسة اللغات وصلاتها ؛ إلا أنه في كل حال نواة تخجل من بعده ، وبخاصة أهل هذا العصر الطموح ، فيؤلمهم ألا يملكوا إلا هذا القاموس القرآني الناقص بل البدائي . وبالتزام هذا المنهج الأدبي يرجى كمال هذا القاموس ، وقواميس أخرى تتطلبها حياة القرآن ، كتاب العربية الأعظم .

***

ثم بعد المفردات يكون نظر المفسر الأدبي في المركبات ، وهو في ذلك ـ ولا مرية ـ مستعين بالعلوم

الأدبية من نحو وبلاغة .. إلخ ولكن لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديماً .. بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده ، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة ، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله .. ثم على أن النظرة البلاغية في هذه المركبات ليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعني بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه ، وترجيح أن ما في الآية منه هو كذا لا كذا ؛ أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر !! كلا ، بل على أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني ، وتستبين معارف هذا الجمال ، وتستجلي قسماته ، في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية منضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فنّاً فنّاً ، وموضوعاً موضوعاً ، معرفة تبين خصائص

القرآن في كل فن منها ومزاياه التي تجلو جماله .

ولئن كان مثل هذا مما يطلب أو يوصف في قليل من الجُمل أو الأسطر ، فإن تحقيقه ليس بهذه السهولة والقرب ، وإنما يقوم على إصلاح أدبي بلاغي أحسب أن الحياة الأدبية اليوم تحاوله ، وهي بالغة منه إن شاء الله مبلغاً حسناً ؛ ومستفيدة به في التفسير الأدبي للقرآن ، كما تستفيد هذه المحاولة الإصلاحية نفسها بمزاولتها للتفسير القرآني ، وإذ أوفى بنا القول على هذا الإصلاح الأدبي فإنا نشير إلى ما تنبغي مراعاته من :

التفسير النفسي : لأن ما استقر من تقدير صلة البلاغة بعلم النفس[1] قد مهد السبيل إلى القول بالإعجاز النفسي للقرآن ، كما كشف عن وجه الحاجة إلى تفسير نفساني للقرآن يقوم على الإحاطة المستطاعة ، بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية في الميادين التي تناولتها دعاوة القرآن الدينية ،

---

(١) بحث « البلاغة وعلم النفس » ـ لكاتب هذا المقال نشره في الجزء الثاني من المجلد الرابع لمجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٩ .

وجدله الاعتقادي ، ورياضته للوجدانات والقلوب ، واستلاله لقديم ما اطمأنت إليه ، وتوارثته عن الأسلاف والأجيال ، وتزيينها بما دعا إليه من إيمان ، ينقض مبرم هذا القديم ، ويهدم أصوله .. وكيف تلطف القرآن لذلك كله ، وماذا استخدم من حقائق نفسية ، في هذه المطالب الوجدانية ، والمرامي القلبية ، وماذا أجدتْ رعاية ذلك كله ، في إنجاح الدعوة ، وإعلاء الكلمة . فالتفسير النفسي ، يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولي بالنفس الإنسانية ، وأن الفنون على اختلافها ـ ومن بينها الأدب ـ ليست إلا ترجمة لما تجده النفس ... وقد ألمنا بذلك في مكانه من الدراسة البلاغية الفنية ، ولا نقول الآن أكثر من أن اللمحة النفسية في المعنى القرآني ، ربما تكون أحسم لخلاف بعيد الغور ، كثير الشعب بين المفسرين ، قد تأثلوا له البراهين النظرية والأقيسة المنطقية ، وتلاقوا فيه بصنوف الأعاريب ، ومعقد الصناعة النحوية البعيدة عن روح الفن ، أو بالمحاولات البيانية الجافة ، إلى النظرات السوفسطائية

المُسِفَّة ؛ وانظر على سبيل المثال تفسير الآيات ١٩٣ - ١٩٥ من سورة الشعراء في الفخر الرازي ٦ : ٥٤١ - ٥٤٣ ط بولاق - وقابله بتفسير الزمخشري لهذه الآيات - كشاف ٢ : ١٣٢ ط بولاق - ترَ الفرق بين الصنيعين ، وكيف كانت نظرة الزمخشري النفسية فيصلاً حاسماً في الموضوع . . . فالملاحظة النفسية حين تعلل نسج الآية وصياغتها ، وتعرف بجو الآية وعالمها ، ترفع المعنى الذي يفهم منها إلى أفق باهر السناء . وبدون هذه الملاحظة يرتد المعنى ضئيلاً ساذجاً ، لا تكاد النفس تطمئن إليه ، ولا هو خليق بأن يكون من مقاصد القرآن .

والحديث عن التفسير النفسي يذكرنا بما عرض له الأستاذ الإمام - روح الله روحه - من صلة بين :

التفسير وعلم الاجتماع : فقد ذكر[1] « أن علم أحوال البشر مما لا يتم التفسير إلا به ،

---

(١) مقدمة تفسير الفاتحة ص ١٦ .

وأنه لا بد للناظر في الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر » .. وهذا هو ما جعلنا نفهم من قوله أنه يريد علم الاجتماع ؛ وإن لم يسمِّه .. ولكنه عقب على ذلك بقوله .. « ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، علويه وسفليه ، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة ، من أهمها التاريخ بأنواعه » . وعلى كل حال فنحن إنما أعنينا بما يقوم به الفهم الأدبي للقرآن ، وهو الفهم الذي يتقدم كل استفادة منه .. ثم تتلوه بعد ذلك المطالب الأخرى من هداية الخلق ، أو إصلاح حالهم أو التشريع لهم .. فكل هذا يجب أن يقوم على أساس وطيد من الدرس الأدبي الذي أسلفنا وصفه العام ، فيتصل بالخبرة النفسية كما ذكرنا ، وقد تتصل المطالب الأخرى بعد ذلك

بعلم الاجتماع أو غيره .

***

وبعد فقد وصفت الذي وصفته من منهج التفسير الأدبي ومطالبه الجليلة ، وأنا ذاكر ما لا أنساه أبداً كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها ، فأقول للمستكثرين : مهما يكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا ويؤخر أثمار دراستنا ، ويشعرنا بالنقص ، ويعود علينا باللائمة فإن هذه هي الحقيقة ، وهذا هو الواجب ، وأولى لنا أن نؤثر تقرير هذه الحقيقة على أن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال ، فنزعم الكفاية الكاملة والقدرة الموفورة . ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص فذلك أجمل بنا من التزيُّد الزائف . . وليس الذي نبغيه من هذا المنهج مستحيلاً ولا بعيد التحقق ؛ فقد شعر أسلافنا بجملته ؛ وقاموا ببعضه للقرآن ، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية ،

ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين العاجزين !!

***

وأخيراً . . . هذا المقال - في أكثره - إيجاز مركز ، وإجمال لامح ، يغري ذوي الشأن في التفسير بآفاق فسيحة من الدرس والبحث . وما عليَّ إذا لم يجد كل قارىء فيه حاجته !. . ليس هنا مجال الاستيفاء .

الفهرس

